من قصص الغرب

تأليف

دستويفسكي، أوسكار وايلد

همنجوي .. وآخرون

ترجمة

نخلة ورد

الكتاب: من قصص الغرب

الكاتب: دستويفسكي، أوسكار وايلد، همنجوي .. وآخرون

ترجمة: نخلة ورد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

من قصص الغرب / دستويفسكي، أوسكار وايلد، همنجوي..وآخرون، ترجمة: نخلة ورد

الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٥٢ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٤٥٧٣ / ٢٠٢٠

من قصص الغرب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كانت القصة منذ أُدم العصور سجلا تاريخيا أمينا وتقرأ فيه الجماعات البشرية سيرة الآباء والجدود، وتستقرئ في هذه السيرة مبادئ أخلاقية واجتماعية عامة تحاول أن تقيم على أسسها بنيان حياتها العامة.

وقد تبوأت القصة في الآداب الحديثة مكانة ممتازة فاتسع نطاقها من حيث السعة والعمق حتى شملت حوادث النفس والمشاعر الخفية التي تواجه سلوكنا وتفسير اندفاعاتنا. كما أضحت وسيلة للتعبير عن الفن وتذوق الجمال في آيات القلوب وروائع الفكر. واتخذت لها غاية عليا هي أن ترسم الطريق وتمهد السبل لقيام حياة إنسانية نبيلة تليق بكرامة الإنسان وجهاده العظيم، خلال العصور، للتسامي عن طبيعة الشر والعمارة إلى مرتبة الإنسان النير الرحيم الذي يحقق في ذاته غاية الحياة الإنسان في أنبل صورها ومثلها.

إننا لنستطيع أن نجد في القصة صورة بريئة صادقة لحياة الأقوام والشعوب. وقد كانت كتب التاريخ التي اعتدنا أن نتتبع فيها سيرة البشرية في عهود حضاراتها وجهلها، سجلا للحروب وسفرا لحياة الملوك والقادة، وتمجيدا للفتوحات والغزوات، تبدأ معها سلسلة من الآلام والمآسي والذل يصيب الغازي والمغزو معا.

وإذا كنا بحاجة اليوم، في غمار هذه الأعاصير التي تهب في أرجاء الوطن العربي، داعية للتشكيك في القيم الروحية وعاملة على بث روح الانهيار الخلفي في

صورة تقديس لكل ما يقع تحت نطاق الحس، وكل ما يحمل إلينا اللذة والاستمتاع.

وإذا كنا في أمس الحاجة إلى نهضة فكرية أدبية تثبتنا على الخير وتحرك في نفوسنا عناصر الحب والجمال والرحمة، وتقينا عثرات الإنهيار، شأن الأشجار الكبيرة التي تحفظ التربة، على ضفاف الأنهار وفي مجاري السيول، من خطر الإنصداع والتفتت.

فإنه لم الخير لنا أن نعترف بعقم آثارنا وفقر آدابنا الحديثة على وجه التخصيص، وق جاءت وليدة عهود مشوشة أريد بها وأد أصالتنا والإنحراف بنا عن مثلنا وطمس ينابيع الحياة والانبثاق في قلوبنا.

فليس لنا إذن إلا أن ننهل من معين الأمم الأخرى ممثلة في آدابها الرفيعة الحية. وأمم الأرض فروع لأسرة واحدة يصيبها ما يصيب الأفراد من ارتفعا وهبوط في الحلقة التي تدور فيها جهود الإنسان على هذه الأرض. وكقد أثبتت التجارب الكثيرة أن النهضات الأدبية في الأمم أكثر ما تقوم على التماس بين ثقافتين وتيارين من الأفكار والنوازع، حتى يسري بينهما نسغ الحياة والفتور ويتم التواكد المبدع المحيي.

ولعل الشعور بهذه الحاجة أكثر ما حدا بي إلى مجموعة من القصص مترجمة لإعلام القصة في الغرب وحملة مشاعل الحرية والنور في دروب الإنسانية المظلمة المليئة بالأشواك والحشرات.

نخلة ورد

دمشق في ٢١ أيار ١٩٥١

المسيح يحتفل بعيد الميلاد

- دستويفسكس -

يخيل لي دائما، أن هذا قد جرى، في مكان ما من إحدى المدن الضخمة، ليلة عيد الميلاد تماماً. وكان الطقس جليدا رهيبا.

طفل. طفل في السادسة من عمره أو أقل أفاق ذات صباح وهو يرتجف من البرد في قبو ينز بالرطوبة. كان يرتدي شيئا صغيرة يشبه القميص، واللهاب المنبعث من فمه يشكل حلقات من البخار الأبيض. وهو قابع في زاوية، فوق صندوق خشبي، يتلهي بمشاهدة هذا البخار ليبدد عنه السأم.

إلا أنه جائع يحس برغبة ملحة أن يأكل شيئا. وكان قد اقترب مرات كثيرة في النهار من الحصير التي تضطجع عليها أمه، فوق شيء من القش يشبه شكل الفراش، وتحت رأسها كومة من الثياب العتيقة تستعيض بها عن الوسادة.

كيف صادف وجودها في هذا المكان؟

لابد أنها جاءت مع طفلها ن مدينة أخرى وأقعدها المرض فجأة وكان البوليس قد استدعى في المساء سيدة القبو. وتفرق بقية المستأجرين في هذه الساعة من الليل، أنه العيد... ولم يكن قد بقى غير

بائع الثياب العتيقة الذي راح يخمر ما التهم من شراب قبل أربع وعشرين ساعة دون أن ينتظر حلول العيد.

وكان في الشقة الشافية عجوز ضئيلة شلها الروماتيزم فراحت تئن وتتوجع. وقد كانت في زمن مضى وبلاد أخرى صغيرة مدللة. إلا أنها الآن وحيدة تتأوه وتشكو وتنتهر الصغير الذي بات يخشى الاقتراب من هذه الزاوية.

لقد استطاع أن يجد في الدهليز شيئا يشربه. ولكنه لم يجد لقمة واحدة من الخبز. وكان كقد اقترب، عش مرات على الأقل من أمه يحاول أيقاظها. ولكن الخوف من الظلمة تملك قلبه الصغير واستبد به الذعر، كان الليل قد أرخى سدوله منذ أمد طويل والنور لما يضيء المكان.

وكان قد جس وجه أمه فوجده باردا كالجدار. وعجب لها كيف ظلت بلا حراك... وهتف لنفسه: "ان البرد شديد هنا". وارتحات يده آليا على كتف أمه الميتة. وراح ينفخ في أصابعه الصغيرة ليبعث فيها الدفء. وبعد أن تحرى عن قبعتة فوق الحصير غادر القبو بلا ضجة وهو يتلمس طريقه بيديه، وكان بوده لو غادر المكان قبل هذا الوقت بكثير، لولا خوفه أن يصادف في أعلى السلم الكلب الكبير الذي كان ينبح طوال الليل أمام باب البيت المجاور. ولكن الكلب لم يكن هنا الآن. وها هو يجد نفسه في الشارع فجأة.

يا إلهي! ما أعظم هذه المدينة! انه لم ير شبيها لها قط. أما هناك حيث جاء مع أمه فقد كان الظلام يخيم على المدينة في الليل، فانوس

واحد كان ينير الشارع كله، ويأوي الناس إلى بيوتهم في المساء فلا نجد أحداً في الشوارع ولا تسمع سوى نباح الكلاب. ولكن الطقس بالمقابل كان دافئاً. وكانوا، هناك، يعطونه شيئا يأكله.

أما هنا! يا الله لو يستطيع أن يأكل شيئاً!

ثم، أي صخب تصم أذنيه، وأية أنوار وجماهير وخيول وعربات، وهذا الجليد الذي ينهمر، ينهمر بلا انقطاع، وخيول العربات الرائحة الغادية تنفث من مناخرها بخارا مجلدا ويرن حديد حوافرها على البلاط خلال الثلج المنثور. وهذه الجماهير تتصادم وتزدحم و... يا إلهي لشد ما تستبد به الرغبة أن يأكل شيئا، لقمة من أي شيء. ولشد ما يحوس بالألم كيدب في أصابعه الصغيرة.

ومر به أحد رجال البوليس فلوى عنه برأس كأنه لم يلحظه هاك شارعاً آخر. أوه! كم هو عريض! هنا ستسحقه احدى العربات حتما. لشد ما يضج كل هذا العالم ويسرع. ويتجاوز الناس سيرا على الأقدام وفي العربات. والنور! ما هذا النور؟

وهذا! ما هذا يا إلهي؟ ما أكبر هذه الواجهة! ورأى وراء الواجهة غرفة فيها شجرة كبيرة ترتفع حتى السقف، انها شجرة صنوبر تزينها لأنوار وباقات الزهر المهبة والتفاح.. وحولها دميات وخيول صغيرة وأطفال البستهم جديدة يضحكون ويلهون، يأكلون ويشربون.

وهاك فتاة صغيرة! لقد بدأت ترقص مع فتى صغير. لله ما ألطفها! حتى نغمات الموسيقى تسمع خلال البلور.

وطفلنا الجائع يفغر فاه دهشة، ثم ينفجر ضاحكاً، يشحكو على الرغم من ألم اصابعه المحمرة والتي لم تعد تنثني.

ويذكر الصغير فجأة أن اصابعه تؤلمه فيجهش بالبكاء ويركض مسرعاً.

وتوقف أماكم واجهة ثانية وغرفة فيها شجرة أيضاً، فرأى على المائدة كميات كبيرة من (الكاتو)، كل أنواع الكاتو، منها مصنوع باللوز ومنها لونه أحمر وأخضر، وأربع سيدات ثريات جالسات يوزعنها على الصغار. وكثير من كبار الناس يدخلون آتين من الشارع وتسلل الطفل ثم فتح الباب بغته ودخل الغرفة.

هو! كيف بدأوا ينتهرونه ويلوحون أيديهم في وجهة. وخفت إليه سيدة وضعت قرشا في يده وهذه تفتح له الباب المؤدي إلى الشارع. لشدما اعتراه الخوف! ولم يستطع أن يطبق على القرش أصابعه المجمدة فتدحرج على السلم، وانبعث له رنين قوي. وأسرع الطفل يركض دون أن يعرف إلى أين يتجه. أنه ليحس برغبة شديدة في البكاء، وكلنه يشعر بالخوف أيضا. وها هو يركض من جديد وهو ينفخ في يديه. وشعر أنه وحيد وخائف، وتملكه الغم والأسى.ووقف فجأة! يا إلهي ما هذا أيضاً؟ جمع من الناس يقفون وارء احدى الواجهات. وتطلع فرأى ثلاث دميات. انها ليست بكبيرة جدا، ولكنها ترتدي ثيابا حمراء وخضراء ويخيل لمن ينظر إليها أنها حية، حية تماما. وهذا عجوز جالس يلعب على قيثارة. قيثارة كبيرة. وعجوزان آخران يلعبان على قيثارتين صغيرتين ويهزان رأسيهما على وقع النغم. انهما

يتطلعان إلى بعضهما، وتتحرك شفتاهما ويتكلمان أجل! يخيل لمن ينظر إليها انهما يتكلمان.. ولكن الواجهة تحول دون سماعهما.

وظن الصغير لأول وهلة انها كائنات حية. ولكنه أدرك انها دمي فانفجر ضاحكاً. أنه لم ير مثلها من قبل. ورغم شعوره بالرغبة. في البكاء فقد أذهله التطلع إلى الدمى. لله ما أعجبها!

وأحس بمن يمسك به من الوراء. طفل خبيث كان يقف إلى جانبه، كال له فجأة ضربه على رأسه، ورمي قبعته ومد أمامه قدمه ودفعه فوقع على الأرض. وسمع من حوله صراخاً وأحس بالخوف فراح يركض مسرعا. واجتاز، دون أن يدري، ساحة دار كبيرة ودخل باب اسطبل وربض وراء كومة من الحطب: "هنا على الأقل لن يستطيع اكتشافي أحد، الظلمة مطبقة.

وجلس القرفصاء وتكوم على نفسه ولم يستطيع أن يأخذ نفساً إلى هذا الحد كان خائفا.

وشعر بارتياح فجأة. وكفت آلام يديه وقدميه وأحس بحرارة كأنه مدفأة. وخيل إليه لحظة أنه يسمع صوت أمه تغني له أغنية صغيرة وهي جانبة عليه.

– ماما أني نائم، لشد ما يحلو المنام هنا يا ماما.

وتمم فوقه بغته صوت حنون: "تعالى يا صغيري الحبيب وانظر إلى شجرتي" وقال لنفسه: "أنه صوت أمي". ولكن لا.. لم تكن أمه. ترى من ناداه إذن هكذا. أنه لم ير أحدا. مع ذلك فإن شخصاً حنا عليه في

الظلام وضمه إلى صدره. ومد، هو، إليه ذراعيه. وغمر الكون فجأة ضياء عظيم! يا إلهي! أي ضياء!.

ورأى شضجرة. أوه! انها شجرة العبد البهية. ولكنها ليس من الصنوبر. أنه لم ير شجرة مثلها من قبل. ترى. أين هو الآن؟ كل شيء يتألق ويزهو وفي كل مكان حوله دمى صغار. ولكن لا ليست بمدى. أنها طفلات وأطفال صغار يلعبون جميعا. يرقصون (الدبكة) ويطيرون. ثم يعانقونه ويمسكون بيده. ويطير إليهم. وهاك ما يرى يرى أمه تنظر إليه بفرح وتبتسم.

ماما، ماما. آه! ما أحلى الحياة هنا يا ماما.

ويعانقه الصغار من جديد. ويهفو أن يفضي اليهم بحديث الدميات التي رآها في الواجهة.

وسألهم ملاظفا: "من انتم أيها الصغار، ومن تكن أيتها الصغيرات اللطيفات؟" قالوا له :"هذه شجرة العيد يقيمها السيد المسيح ليلة اللميلاد للصغار الذين لم يكن لهم على الأرض شجرة عيد".

وهكذا عرف أن كل هؤلاء الأطفال كانوا مثله. منهم من مات من البرد في سلال تركت على سلالم القصور في بطر سبورج. وبعضهم قضى بين أيدي المرضعات. ومنهم من فارق الحياة على اثداء أمهاتهم وقد نضب حليبها يوم مجاعة مدينة سامراء، وقد اجتمعوا هنا الآن كالملائكة في ضيافة السيد المسيح، وهو بينهم، يرفع يده ليباركهم ويبارك أمهاتهم.

والأمهات هنا أيضا، يقفن في زاوية ويذرفن الدموع. وتتعرف كل منهن إلى طفلها الذي يطير للقائها. والأطفال يعانقون أمهاتهم ويمسحون دموعهن ويرجونهن أن يكففن عن البكاء طالما هم سعداء.

وفي الصباح، وجد البوابون، هناك .. جسم طفل صغير دخل بهو الدار مسرعا وتجلد وراء كومة من الحطب. كما وجدوا أمه أيضا وكانت قد فارقت الحياة قبل طفلها بقليل.

والتقى الإثنان في ملكوت الإله الرحيم.

أميرة السلام

- سلمى لاجرلوف -

جرت وقائع هذه القصة لدى وصول مرجريتا، أميرة السلام إلى (ستوردجاردسبين) قرب مرتفعات كنجاللا. وكانت في طريقها إلى بلاد النرويج، حيث يحتفل بعقد قرأنها على الملك مانيوس. وكان أول من رآها امرأتان عجوزتان كانتا تجمعان الحشائش من أعالي هضبة يانعة فرمتا حمليهما وأسرعتا تنبآن القرية أن الأميرة آتية من بعيد، في طريق الغابة.

ولكن أحداً لم يرد أن يصدق العجوزين.

– ويل لعيونكن المظلمة، إنها لم تر غير ضباب المستنقع يتراقص حول جذوع أشجار الصنوبر الشقراء.

ووصل في أثر العجوزين الفتى الفحامة راسموس وكانت عيناه تبرقان وصوته يتهدج: الأميرة آتية. رأيت الأميرة تسير على مهل تحت الأمشجار، فأبشروا وأسعدوا.

وتوقف راسموس أمام ساحة القرية، حيث تجمع بعض الفلاحين يتحدثون بصوت خافت عن الحرب التي سوف تعلنها النرويج. ولما سمعوا راسموس ظنوه يهزأ بهم فهددوه بقبضاتهم: "اسكت يا ابن الدب أن كنت تحرص على الالحتفاظ بجلدك، حذار، ولا كلمة أيها الشرير".

ولكن سكوت راسموس لم يكن هينا، راح يصرخ بأعلى صوته الأميرة آتية. لقد حيتها عصافير الغابة بالأغاريد. وكان ديك العليق يتطاير أمامها فتدوى أجنحته كالصاعقة، وينزلق السنجاب لمقدمها، من قمة شجرته، إلى أسفل غصن فيها وعيناه تتقدان كالجمر وذنبه ملفوف كالضمامة زهر.

ولما سمع (بير) الحداد هذا التحدي أمسك بإذن راسموس وانثالث الكلمات صفيرا من فمه: "تقول انك رأيت الأميرة! إنها جنينة الغابات أيها الأحمق، أواه! رحماك يا إلهي، فالأميرة لن تأتي"

ورغم أن أحداً لم يرد أن يصدق النبأ فقد سرى كالنسيم بين طرفي القرية الحزينة التي خربتها الحروب وحرقت أكواخها، والتي لم يكن ليجروء أحد أن يبني فيها شيئاً جديداً، خوفاً من الحروب المقبلة. وكان أهلها يتنافرون من بين الأنقاض والمغاور بوجوه معفرة وأثمال بالية ويتجمعون حول راسموس ليسمعوا قصته.

وانبرت من بينهم العجوز سيجريد بعصاها الطويلة وصرخت بوجهه: "من يقول أن الأميرة آتية؟ أني لأعرف بما سيأتي! فقد ظللت طوال الشتاء وحيدة في كوخي أتأمل الدخان المتصاعد من المدفأة، وكان مفعما بالنذر:" صور وأشباح مكفهرة تحمل الرماح والحراب وتنبأت بأخبار الغزاة من جنود الملك مانيوس وهو يتسللون إلى أكواخنا تحت جنح الليل فنفيق على صياح الديوك الحمر، وأغاني المغيرين يحدون بأهازيج الظفر".

وسرت في الحضور وعشات الخوف والذعر: ولكن الفتى راسموس انتصب أمام العجوز وقال لها: لست أكترث لسحاب دخانك! لقد رأيت الأميرة. وكان جبينها البهي يبرق سناء وطهرا تحت تاجها الملكي.

وتلفت الجمع لمقدم رجل كان قد ظل سنين طويلة منفياً في الغابة. وكان أشبه بالوحش الضاري، تكسو جسمه الجلود ويعطي الشعر هامته ووجهه، إلا أنه كان يبتسهم ويلوح فوق رأسه غصناً أخضر، رمزاً للسلام. وتوقف أمام البيوت المهدمة والمغاور المظلمة وصرخ بملء رئتيه: "الأميرة آتيه. رأيت الأميرة".

ولما رأة المختار فولك، العجوز الحزين المقوس الظهر قال له: "عليك الأمن والسلام أيها المنفي، فما بك حاجة أن تأتينا بالأكاذيب لتلتمس العفو عنك، فها أنا أحطم الطوق الذي يثقل رأسك، فلن تعود إلى الغابة بعد".

– ولكن لماذا لا تصدقني؟ هل نسيت أن الملك آنج قد وعد بإرسال ابنته في الربيع حمامة أمن وسلام؟

ورفع إليه العجوز نظرات متعبة يائسه: "وما أدري أنا بالربيع! خريف أو ربيع، كله سواء لدينا نحن الفلاحين. فليبق الثلج في حقولنا، ولتتفجر الغيوم غيثا لا ينقطع. ولتمت البذور في الأرض فنحن لا نزرع ولا نحصد، بل ننتظر الفواجع والموت".

وسمع الجمع صوت العجوزين: "أحرمينا يا أم الإله". وتطلع الناس إلى الطريق الذي ينساب من قلب الأجمة المظلمة، وتعالى صراخهم: "تعالوا

انظروا" — ماذا؟ – "ضعوا أيديكم فوق عيونك، ارسموا شارة الصليب وتطلعوا إلى الغابة، ألا ترون لأميرة على رأس موكبها البهي. أهي الغابات يا إلهي أم الأميرة ذاتها"؟ وتراكض بعض الفتيان فقرعوا الأجراس ليتأكدوا أن الأميرة ليست من الجنيات التي يخيفهن صوت الأجراس فيركن إلى لافرار.

وتطلعت العجوز سيجريد بعيونها الحادة. فرأت في مدخل الغابة المظلمة صبية حسناء تتهادى على حصان أسود فهتفت: "يا نجمة الصبح، أيتها الزهرة اللطيفة/ أجل لست جنية الغاب. أنت ابنة الملك حقا. فلك الثناء والمجد". ورفعت عصاها فوق رأسها وخفت لاستقبال الأميرة يتبعها الأهلون. ولما وصلوا إليها حيوها قائلين:

"يا نجمة الصبح، أيتها الزهرة اللطيفة، ارفعي نقابك الحريري لنتملأ من وجهكو الصبوح".

وتدافعوا حول حصانها الأسود يتهادى في حلته الأرجوانية ويطفو على أذنيه ريش ملون، وشعر غرته جدائل تتخللها حبال من ذهب. وكان في موكب الأميرة كثير من الفرسان والسيدات النبيلات. ولكن فلاحاً مسكيناً كان يسير أمام جوادها وبيده سيف مكسور ويصرخ بلا انقطاع: "هاكم أميرة السلام. ها هي الأميرة مرجريتا فريدكوللا".

ورأت الأميرة، خلال مسيرها بين الولايات المتاخمة لبلاد النرويج، رأت الطمأنينة والفرح يغمران قلوب الناس. في كل مكان وصلته بدأ الفلاحون يغرزون سكة محاريثهم في جوف الأرَ. وأرسلت القطعان

العجفاء الهزيلة إلى المراعي. وأزدادت المعاصم والأصابع بالأساور والخواتم. والقي بالسيوف والرماح في خزائن السلاح. وتقدم الأطفال والنساء لاستقبال الأميرة، في كل أرض وطأتها، بالأزهار والرياحين وهناك، في مدخل الغابة الكبيرة، المبردة، وكان يتهافت للقائها الفلاحون فيصفون لها شقاءهم وفقرهم فلشد ما انتظروا وتعذبوا!.

وعندما وصلت فيد كولا إلى مفترق الطريق شدت اللجام وأوقفت حصانها. إنها لم تر بؤسا يماثل هذا البؤس. ان نظراتها لتتيه شاردة في سهول جرداء مقفزة وبيوت مهجورة وجماعات بائسة حزينة ترتدي الأطمار البالية. وامتلأت عيناها بالدموع. إلا أن الفلاحات قبلن يدهما وقلن لها: "إن عهد العذاب والحرمان قد شارف نهايته طالما هي قد أتت".

– لا تهتمي لأمرنا يا فريد كوللا. ولا ترثي فكري بزوجك العتيد الملك مانيوس. ليفتر ثغرك الملائكي بابتسامة المسرة والفرد، وليداعب خيالك شعره الحريري المنير.

وكانت الأميرة جاثمة فوق حصانها تذرف السخينة بينما يحاول الفلاحون إدخال العزاء إلى قلبها: "لقد مضى عهد الدموع أيتها الأميرة البهية. انظري إلى النهر الذي يجري هناك، كنجاللا المرفأ الغني بالمراكب، ينتظرك فيه الزوج السعيد. ولسوف تهزه نشوة الفرح عندما تضمك ذراعاه انظري أيتها الأميرة، لقد عرف الشعب بمجيئك، وهذه نيران الفرح تشتعل في أغالي الهضاب. أنهم يسرعون إلى ضفاف النهر، وقد تعلموا أن يهتفوا:

"فريد كوللا، هايل. هايل". ألا تسمعين أصواتهم تتماوج عبر النهر.

ولكن العزاء لم يكن ليلج قلب الأميرة.

كانت تتأمل هؤلاء المساكين في أسمالهم البالية، ضعافاً معروفين، تبدو على سمائهم مظاهر الوحشية، حتى لا يكادوا يشبهون البشر.

ورفعت الأميرة يدها تشير إلى أنها تود الكلام. وساد حولها صمت مهيب. وسمع الفلاحون والسادة، وسمع سيدات موكبها بوضوح كل كلمة قالتها: "تذكروا ما أعدكم به هنا أمام الله، أني سأعمل في سبيل السلام ما دام يجري على لساني كلام وينبض في قلبي دم". وتوقفت قليلاً كأنما هي تشعر بخطورة هذا العهد. ثم أضافت: "سأفعل هذا ولو كلفني سعادتي وفرحي".

وأشرق وجهها بمعاني الأقدام والعزم وكفت عن البكاء. ثم دفعت حصانها في الطريق الذي ينحدر إلى النهر.

وبينما هي في سيرها، رأت راعيا كان يجلس على حافة الطريق. وكان مرحا سعيدا ككلى الناس، ويود أن يقدم للأميرة أفضل ما عنده، فراح ينشد أغنية صغيرة تشيد بحب أحد ملوك الشمال لابنة إمبراطور الشرق.

وأوقفت فريد كوللا حصانها لتستمع إلى أغنية الصبي. كان يغني بصوت مرتفع نبراته واضحة حنونة: « في العالم امرأة واحدة أقضي من أجلها الليالي الطوال مسهدا. ويمنع على حبها الاستمتاع بالملاهي والملذات. هي عذراء الشرق الجميلة، ذات الشعر الخرنوبي والعيون السود، ماتيلدا ابنة

الإمبراطور. إن حبي وحنيني يتبعاني حيث مرت، في الحقل والقصر، و في ميادين القتال. ويسير أمامي الحزن وآلامي لأني لا أملك ابنة الإمبراطور.

وكانت الأميرة تستمع إلى الأغنية باهتمام فسألت الراعي الصغير: و من الذي ألف هذه الأغنية ؟

ولم يكن إلى جانب الراعي من يصده عن الجواب فقال لها فخورا: "انه الملك مانيوس، قالها في ابنة الإمبراطور ماتيلدا".

وشعرت الأميرة بوخز يدمي قلبها.

الملك مانيوس هو الذي ألف هذه الأغنية !

فما حاجتي أن اذهب إليه إذن، طالما هو يصبو إلى ابنة إمبراطور الشرق. انه لم ينظم في أغنية تترنم بها الشفاه. ليس له ذرة أب نحوي.

وسمعها الفلاحون واجمين، تدعو أفراد موكبها: أيها الفرسان الأبطال والنساء النبيلات. ارحموا قلبي يا أتباع والدي المخلصين ،ولا تذهوا بي إلى الملك مانيوس. لقد سمعتم الأغنية. انه لا يتحرق وجدا إلي. الملك مانيوس يصبو إلى ابنة الإمبراطور الجميلة.

وبينما الأميرة تتكلم كانت الجماهير تتجمع على طرفي الطريق وتهتف: "فريد كوللا. هايل، هايل".

وأسرع من مدينة كنجاللا آلاف من الناس يرددون الصدى المتضخم: «فريد كوللا. هايل، هايل».

وكانت الأميرة تبكي وتنتحب: رأيها الفرسان والسيدات النبيلات، عودوا بي، أننا نسيء إلى الملك مانيوس، إذ نضطره أن يجعل مني ملكة. لست أبغي سوى الرجوع إلى قرب والدي".

وكانت أصوات الذين تجمعوا على النهر تردد الهتاف: «فريد كوللا. هايل، هايل». وصمت فريد كوللا أذنها بيدها: "أواه، لو يلازموا الصمت. أنهم يدعونني أميرة السلام. ولكن السلام يستطيع إن يستتب بدوني. فالملك مانيوس لن يعود إلى الحرب أكراما لي فرجوعي سيسبب له الفرح".

وكان حصانها قد اقتحم له طريقا فدفعته بقوة إلى الأمام. وتساءل الذين كانوا إلى جانبها: «إلى أين تذهب»؟

وعندما رأوها تتجه إلى الغابة اندفعوا في أثرها: «أصغي إلينا أيتها الأميرة، أصغي لما تقوله هذه العجوز..

– إن رأسي يترنح تحت ثقل السنين، والحرب ستنتزع مني وحيدي.

– لماذا تصمين عنا أذنيك أيتها الأميرة. أصغي إلينا، وإلا فستغلق الأبواب وتفتح صناديق الأسلحة. وينتزع الفلاحون السكة – من الأرض.

– فريد كوللا. فريد كوللا، لن نجرؤ على بذر الحنطة.

– فريد كوللا، لن تستطيع ابنتنا إن تعقد قرانها هذه السنة أيضا.

وعندما تحترق مزارعنا ستصنع النساء العجوزات دائرة خزي ولعنة يحفرون فيها اسمك. فكري بنا أيتها الأميرة فنحن هالكون. –

وتدافع أمامها الجمع: على أجسادنا! على أجسادنا تمرين. لا، لن تعودي. هل نسيت العهد الذي نذرته قبل هنيهة؟ ألا تسمعين كيف هتفون لك على الشاطئ الآخر ؟

وكان بعضهم يقبل يديها والبعض الآخر يمسك بلجام حصانها. ورأت أنهم لا يريدون ما سوءا. حتى الخطرين من رجال الغابة. والمنفيين الذين منحتهم العفو، وكانوا قد انتفضوا حرابهم، اندفعوا يقبلون طرف ردائها.

ولكنها رفعت السوط صارخة: " دعوني أمر".

وتراجع الفلاحون مبهوتين، وأدركوا مبلغ ألمها. ولم يجرؤا على التماس رحمتها: «لتكن مشيئتك أيتها الأميرة فالطريق مفتوح أمامك".

وتوقفت الأميرة عن السير وظلت بلا حراك برهة تتطلع بعيون ملؤها الأسى والحنين إلى أشجار الهضاب، يرتسم خيالها على صفحة الأفق ويتراءى لها، وراء الربى، المقر الوالدي حيث تود إن تتوارى وتختبئ، كما يفر الحيوان الجريح ليأوي إلى أجمته.

وظلت على هذا فترة طويلة، نظراتها مثبتة في الأفق، ودموعها تنهمر واحدة بعد أخرى. ثم أدارت رأس حصانها بلطف وراحت تهبط النهر.

لم يكن ثمة من يضطرها إلى ذلك. وكانت تعلم أنها غير مرغوب فيها هناك ولكن حب السلام كان يتقد في صدرها. بدأت تسير على مهل. وراح الشعب يتبعها بلا هتاف ولا صخب. لم تعد تتقدم باندفاعها وحماسها السابق،

وكانوا يتهامسون من حولها "ولندعها هادئة ".. ولم يتصاعد بالهتاف لها صوت.

وعندما اجتازت النهر، على الطرف الكبير، نزلت عن حصانها وانحنت فوق الماء الجاري، وراحت تناجي نفسها:

"أترين هذا الماء يا فريد كوللا، انه يسير إلى البحر بقوة لا تدفع فلا يجوز للأمواج إن تتردد. يجب أن ترمي بنفسها في أحضان الخضم العظيم، حتى إن بدا لها مرا مخيفا. فعبثا يلقى النهر، في مسيره الطويل، الخلجان اللطيفة الآمنة، تحف بها الإقصاب المرتعشة. انه لا يستطيع الصمود إلى نبعه الهادئ، هناك في أحضان الغابة. يجب إن يسير إلى الأمام دائما، هذا قدره. يجب إن تكوني يا فريد كوللا الموجة اللطيفة التي تذوب في ضجة هذا العالم المضطرب لتخفف من مرارته وآلمه.

وكان الفرسان النبلاء قد غادروا كنجاللا سراعا إلى النهر للقاء فريد كوللا.

– ارفعي عينيك يا فريد كوللا. تطلعي إلى الملك مانيوس، فعلى خوذته يربض الأسد المذهب، رمز الملك. الأسد يخفق بين ثنايا رايته و يبرق على ثوبه الحريري الأحمر. وهو نفسه أسد الشمال. انظري إلى شعره الذهبي المرسل على كتفيه. انظري إلى زهوه. الغبار يتطاير أمامه والأرض ترتج للقياه. وظله الأسود يسير خيبة فوق الحقول في ظلمة المساء الزاحف.

– ارفعي عينيك أيتها العذراء وابسمي لزوجك.

ابعدي عنك هذا الخاطر الحزين، أن ترمي بنفسك تحت الحوافر المتطايرة، وتستقبلي الموت.

موت فيكونت سلفانيا

- مارسيل بروست -

"كان ابوللون يحرس قطعان ادمينوس، هكذا يقول الشعراء. والإنسان إله مقنع، هو أيضا، يقلد المجنون".

– لا تبك هكذا يا سيد الكسي. أن حضرة فيكونت سلفانيا قد يهبك حصانا.

– حصانا كبيرا ؟

– قد يكون كبيرا كحصان السيد جاردينبو. ولكن لا تبك إذن هكذا... في يوم ميلادك الثالث عشر !

والتمعت عينا الكسي، خلال الدموع، لهذه الأمنية السعيدة أصبح رجلا في الثالثة عشرة من عمره، وسيكون له حصان !

ولكن العزاء لم يجد سبيلا إلى قلبه، فقد كان عليه أن يذهب هذا اليوم لزيارة عمه بلداسار سيلفند، فيكونت سلفانيا. صحيح أن الكسي كإن قد شاهد عمه مرات كثيرة، مذ علم بان علته لا يمكن شفاؤها. ولكن كل شيء تغير بعدها. لقد عرف بلداسار حقيقة مرضه وبات يعلم أن حياته على الأرض لن تطول سوى ثلاث سنين على الأكثر..

وكان الكسي يحار في سره، كيف أن هذا التأكيد لم يورث عمه

الجنون أو يقتله غما وحزنا، وكان يخيل إليه بأنه لن يتحمل ألم رؤيته، ويعتقد أن لابد لعمه أن يحدثه عن نهايته القريبة، فلا يجد في نفسه القوة على حبس عبراته، بله التسرية عنه وإدخال العزاء إلى قلبه.

كان يحب عمه حبا يقارب العبادة وجد فيه أجمل شباب العائلة، أشدهم فتوة وحياة وظرفا. كان يحب عينيه الرماديتين وشاربه الأشقرين وركبتيه، ملجأه الأنيس الأمين يوم كان طفلا. وقد كانتا تبدوان له منيعتين كقلعة حصينة، محترمتين كمعبد، ومسليتين كاحصنة من خشب.

وكان الكسى ينكر في سره تجهم أبيه وملامحه القاسية ويحلم بمستقبل يكون فيه، على حصانه دائما، رشيقا كسيدة، ورائعا كملك، ويجد في بلداسار اسمي وأكمل مثال حي للرجل.

كان يعرف إن عمه جميل، وانه يشبهه، وكان يعلم انه ذكي كريم، وان سلطته تعادل سلطة أسقف أو قائد. والحق أن انتقادات أهله كانت قد صورت له الفيكونت كرجل ذي مساوئ ومباذل، حتى ليذكر ما شاهده من ثورة غضبه يوم هزأ به ابن عمه جان جالياس، ولهجة الاحتقار التي كان يحدث بها لو كريسيا عندما صارحته بأنها لا تحب موسيقاه.

ولكن مساوى، عمه كلما زالت الآن على التأكيد. فعندما علم الفيكونت بأنه قد يفارق الحياة خلال سنتين، لشد ما أضحي لديه هزئ ابن عمه وقيمة موسيقاه، وكل ما عدا ذلك، أشياء تافهة لا يؤبه لها. وكان الكسي يصوره لنفسه جميلا رائعا، من روعة ذات طبيعة خاصة ليس لها صلة بروائع

هذا العالم. وكان يمتزج بأساه وحزنه على عمه شيء من الخوف والقلق.

واعدت العربة فصعد إليها الكسي. ولكنه لم يلبث أن نزل منها وقصد إلى مربيه يستشيره في أمر. وعندما بدأ يتكلم تخرجت وجنتاه بلون الدم.

– سيد ليجران. هل يستحسن أن يشعر عمي باني اعرف انه سيموت.

– كلا يجب ألا يشعر.

– وإذا حدثني بذلك.

– لن يحدثك.

– لن يحدثني! قالها الكسي مستغربا إذ كانت الاحتمال الوحيد الذي لم يساور خاطره. فعندما كان يتخيل زيارته لعمه كان يفترض دائما انه سيحدثه عن الموت بلطف وهدوء الراهب الناسك.

– ولكن على افتراض انه حدثني.

– تقول له: انك واهم.

– وإذا بكيت ؟

– بكيت كثيرا هذا اليوم، فلن تبكي أمامه.

وصرخ الكسي يائسا: "لن ابكي! ولكن قد يعتقد عمي العزيز إني لا أحبه" وراح يجهش بالبكاء. وكانت أمه قد ملت انتظاره فجاءت تفتقده، وسارت بها العربية.

* * *

عندما أعطى الكسى معطفه الصغير للخادم المنتصب في البهو توقف قليلا مع أمه ليستمع إلى نغم قيثارة ينبعث من غرفة مجاورة. ودخلا غرفة مستديرة جدرانها من البلور، وتطل من جهة على البحر ومن الجهة المقابلة على غابة وسهول ومراع خضر. وكان في صدر الغرفة هرتان و أزهار وورود وآلات موسيقية. وظلا ينتظران برهة. واندفع الكسي إلى أمه. ظنته في البدء يريد معانقها، إلا أنه قال لها بصوت خافت وفمه ملصق إلى أذنها: كم يبلغ عمي من العمر ؟

سيبلغ السادسة والثلاثين في حزيران القادم .. وود الكسي لو يسألها: "أترينه سيبلغ السادسة والثلاثين ؟" ولكنه لم يجسر.

وفتح باب فاعترت الكسي رعشة، ودخل خادم يقول: "سيحضر سيدي الفيكونت لتوه". ثم عاد و ادخل طاووسين و معزاة لم يكن يفارقهما الكونت. وسمع وقع أقدام، وفتح الباب من جديد. وكان قلب الكسي يثب كلما سمع ضجة. وقال في سره هذه المرة: "لابد إن يكون خادما آخر"، ولكنه سمع في الوقت نفسه صوتا لطيفا يقول له: "صباح الخير يا صغيري الكسي، أتمنى لك عيدا سعيدا. وتقدم إليه يعانقه، فشعر الكمي بشيء من الخوف لم يغب عن الكونت الذي أراد أن يعطيه فرصة يهدئ بها من روعه فشغل بالحديث مع امرأة أخيه، وكانت أعز مخلوق لديه بعد وفاة أمه.

ومرت دقائق لم يعد يشعر الكسي بعدها بسوي حنان هائل نحو هذا الشاب الجميل، وقد علت وجه مسحة شحوب خفيف وراح مثل

دور الفرح والبهجة في هذه الدقائق الفاجعة. انه ليود أن يوتي على عنقه فلا تواتيه الجرأة، خشية أن تنهار أمامه مقاومة عمه المسكين فلا يستطيع السيطرة على أعصابه. وكانت نظرات الفيكونت الحلوة. الحزينة تبعث فيه رغبة ملحة للبكاء. كان يعلم إن نظرات عمه كانت حزينة دائما. حتى في اللحظات الفرحة السعيدة، كانت تبدو وكأنها تلتمس العزاء آلام خفية لا تظهر على سيماته علائم الشعور بها. وشعر في هذه اللحظة أن آلام عمه التي استطاع أن يبعدها عن حديثه بشجاعة و عزم، قد استقرت في عينيه الغائرتين و في خديه الهزيلين.

قال له عمه: "أعرف انك تحب أن يكون لك عربة بحصانين يا صغيري الكسي. سأقدم لك الحصان غدا، وأكمل الزوج في السنة القادمة. فتكون لديك عربة خلال سنتين، ولكنك قد تستطيع امتطاء الحصان هذه السنة. سنجرب هذا لدي رجوعي، إذ إني راحل غدا. ولكني لن أتغيب طويلا. سأعود قبل مضي شهر ونذهب معا لحضور المسرحيات التي وعدتك بها".

وكان الكسي يعلم أن عمه سيقضي بضعة أسابيع لدى احد أصدقائه. وكان يعرف أيضا أنهم ما يزالون يسمحون لعمه بالذهاب إلى المسرح. ولكن مدى تغلغل فكرة الموت في رأسه، وقد ضعضعته في أعماق أعماق ذاته قبل أن يقصد لزيارة عمه، أثارت في نفسه دهشة عميقة محزنة. وهتف لنفسه: "لن أذهب، فلشد ما سوف يؤلمني تهريج الممثلين وضحك النظارة".

وسألت أم الكسي عن اللحن الجميل الذي سمعاه لدى وصولهما.

– آه!.ترينه جميلا؟ هو اللحن الذي حدثتك عنه. قالها بلداسار وعلى وجهه مظاهر الفرح. وتساءل الكسي في سره: مثل الكوميديا؟ كيف يستطيع نجاح موسيقاه أن يدخل أن يدخل السرور إلي قلبه بعد؟

واتخذ وجه الفيكونت في هذه اللحظة عبارة ألم عميق فشحبت وجنتاه، وقطب شفتيه وحاجبيه، وامتلأت عيناه بالدموع.

وصرخ الكسي في سره: يا إلهي! أن هذا الدور ليتجاوز درجة احتماله. واه لعمي المسكين! ولكن. لم يخشى إلى هذا الحد أن بسبب لنا الأكدار. لم يرهق نفسه بمثل هذه الشدة

***

عندما عاد الكسي مع أمه تأثر قلبه الصغير لفكرة بدأت تراوده انه هو أيضا سيموت بوما. وإذا كان مجاله أفسح مدى من مجال عمه خان بستاني حديقة الفيكونت وابنة عمه الدوقة دالربوفر أن يعمرا بعد. طويلا. ولكن البستاني ما يزال مستمرا، مع ذلك، في سعيه اليومي لكسب اكبر قدر ممكن من المال، ولكي تظفر وروده بأعظم الإثمان. والدوقة، رغم سنيها السبعين، مازالت تهتم لأمر زينتها واصبغتها، وتدفع أموالا للصحف لتشيد بفتونها و مشيتها الرشيقة، وابتهة حفلاتها، وسعة معارفها..

وعجب الكسي لمهازل هذه النماذج الإنسانية الحية، ولم يستثن منها مثال حياته نفسها. واتخذ في قراره نفسه قرارا خطيرا: انه لن يجاري

هؤلاء الضالين السخفاء. و كهؤلاء الأنبياء الذين تعلم تمجيدهم وعقد قلبه على حبهم، سيعتزل العالم وينزوي في الصحراء مع بعض رفاقه الصغار. وكاشف أهله بهذا القرار، ولكن الحياة، وهي أقوى لحسن الحظ من مهازل هؤلاء الأطفال، لم تكن قد استنفدت معهم حليبها المنعش المحيي، فمدت به ثديها لتحوله عن عزمه فأخذ يعب بنهم وفرح، ويسمع ببراءة خياله الخصب، إلى نغم شكاتها، ويصلح على أبدع شكل ما نقوضه معا ولها المخربة.

الفصل الثاني
الجسد حزين، يا للاسف

- ستيفان مالمي -

في اليوم التالي لزيارة الكسي سافر فيكونت سلفانيا لقضاء أسابيع في قصر صديقى له، حيث يستطيع المدعوون الكثر، أن يسروا عن نفسه الحزن الذي يعقب نوبات مرضه. ولم تلبث مسراته كلها أن تجهمت بمصاحبة امرأة صبية كانت تضاعف أفراحه بمقاسمته إياها. وقد خيل إليه أنها تحبه، ولكنه استبقى حبالها بعض التحفظ.

كان يعرف أنها وفية طاهرة. وكانت تنتظر بفارغ صبر قدوم زوجها. ثم لم يكن واثقا من حبه الأكيد لها. وكان يشعر بصورة مهمة بالجريمة التي يرتكبها إن جرها إلى الإثم في أي برهة اتخذت علاقتها شكلا غير طبيعي؟

لم يعد يذكر شيئا من هذا، أما الآن، وكأن ذلك نتيجة الاتفاق ضمني لم يعد يذكر عهده، فهو يقبل معصمها و يلف يده حول عنقها. وكانت تبدو سعيدة لدرجة انه تجاوز هذا الحد في احدى الأمسيات. بدأ يعانقها، ثم داعبها طويلا، وقبلها من جديد في عينيها وخديها وشفتيها وعنقها، وفي أطراف انفها.

وكان في الصبية مختلج لهذه المداعبات، وتتألق نظراتها في أعمق أعماقها، كما تلتمع قطرات الندى في وهج الشمس.

وغدت مداعبات بلداسار، مع الزمن، على أكثر من الجرأة. وتأملها مليا مرة، فوقف مشدوها لشحوبها ولهذا اليأس اللانهائي يعبر عنه جبينها الميت وعيناها التعبتان الحزينتان تبكيان في نظرات اشد حزنا من الدموع، كالعذاب الذي نقاسيه خلال عملية صلب أو فقد عزيز معبود. وتأملها لحظة وجهد عظيم، رفعت نحوه عينها تستجديان الرحمة. وفي الوقت ذاته توجه إليه فمها النهم بحركة تقلص لاشعورية يلتمس القبل. ولفتها من جديد تلك اللذة المحمومة المفعمة بغبير قبلاتهما وذكرى مداعباتها فاندفعا إلى بعضهما وأغمضا عينيهما، هذه العيون القاسية تكشف لها عن شقاء نفسيهما. ولم يكونا ليريدان رؤية هذا الشقاء، وهو، على الأخص، أغمض عينيه بجملة قواه، كالجلاد ينتابه الندم فيحس برجفة في ذراعه عند ضرب الضحية.

وكان قد جاء الليل وهي هنا، في غرفته، وعيونها تائهة، مبهمة بلا دموع. وقبلت يده بحزن اليم وراحت دون أن تقول له كلمة.

أما هو فلم يستطع أن ينام. وإذ بدا له أن مخلد للسكون لحظة أخذ يرتجف لشعوره بان عيني الضحية اللطيفة متجهتان إليه راجيتين يائستين. وتمثلها لخاطره لحظة، كما يجب أن تكون في هذه البرهة وقد ثقلت عليها الوحدة، وجفا عينيها الكرى فارتدى ثيابه ومشي بلطف إلى غرفتها، ولم يكن ليجسر على القيام بحركة خوفا من إيقاظها إن كانت نائمة، ولم تسعفه الجرأة ليعود إلى غرفته حيث تضغط عليه بإثقالها السماء والأرض وروحه جميعا.

وظل هنا على عتبة غرفتها وهو يعتقد في كل لحظة انه لن يستطيع أن يضبط نفسه فترة أخرى، وانه سيدخل، ثم تخيفه هذه الفكرة، من أنه سيقطع بذلك سلسلة نومها وأنفاسها الحلوة الساجية وانه سيسلمها بقسوة إلى اليأس والندم وقد هادنتهما بلحظة راحة، فظل هنا على العتبة، جالسا مرة، وجاثيا على ركبتيه أخرى، ونائما حينا. ورجع إلى غرفته في الصباح واجفا مطمئنا. واستسلم للرقاد ثم استقطب مرحا سعيدا.

وافتن بلداسار وصديقته في تطمين ضميريهما. وتعودا على الندم وقد بدأت تخف وطأته شيئا فشيئا، وعلى الذات التي تضحي، مع الزمن، اقل احتداما وقوة.

الفصل الثالث

فتوته تثير في سمعه ضجة، لا يسمعها

- مدام دي سيفينيه -

عندما جاء الكسي لزيارة عمه، في عيد ميلاده الرابع عشر، لم يشعر، كما كان يتوقع، بالاختلاجات والمشاعر العميقة التي أحس بها في السنة الماضية. فان نزهاته الطويلة على ظهر الحصان الذي قدمه له عمه، بارتمائها قوى بدنه، قد هدأت من هياج أعصابه، وأوقدت فيه جذوة هذا الشعور الدائم بالصحة الطيبة، يضاف إلى فتوته، كشعور مهم بعمق موارده وقوة أفراحه. انه ليشعر تحت لفح النسمات التي يوقظها سيره الحبيب على ظهر حصانه، و كأن صدره ينتفخ كالشراع وجسده يلتهب كنار الشتاء، ويحس بجبينه رطبا طريا كالأوراق والأغصان الهاربة التي تلتطم به لدى مروره. وهو إذ يشعر بجسده يقسو، ويشتد عوده صلابة في الماء البارد، أو يسترخي ويستريح طويلا في ساعات القيلولة الهينة، ليجد في كل هذا ما يهيج فيه قوى الحياة، هذه القوى نفسها التي كانت لعمه في ما مضى، باعث كبر وزهر، ثم انحسرت عنه لتهج نفوسا أخرى على أكثر من الفتوة، ثم لن تلبث أن تغادرها، هي الأخرى بعد ذاك..

لم يكن قد بقي في الكسي شيء بوسعه أن يهن وينهار لمصير عمه المحزن ونهايته القريبة، أن الوشوشة الفرحة لهذا الدم الذي يتخبط في

عروقه، وهذه الرغبات تشتعل في رأسه، كانت تصد عن أذنه شكلة المريض ولهائها الخافت. فلقد دخل الكسي في هذه المرحلة من العمر التي يشتغل فيها الجسم بقوة ليشيد قصورا له يقيمها بينه وبين النفس فتبدو وكأنها قد اختفت إلى اليوم الذي يحفر فيه المرض أو الحزن ثغرات تبدو خلالها. لقد اعتاد على مرض عمه المميت، كما نعتاد ونألف كل ما يستمر أمده من حولنا.

عندما قال له عمه في ذلك اليوم: "سأعطيك العربة والحصان معا هذه المرة، يا صغيري الكسي". أدرك أن عمه لابد إن يكون قد فكر في نفسه: "إذ بدون هذا، قد لا تحصل على العربة أبدا".

كان يعلم أنها فكرة جد حزينة، ولكنه لم يشعر بما تثيره من حزن، اذ لم يكن لديه في الوقت الحاضر مكان الحزن العميق. وعجب بعد أيام، في إحدى قراآته، لوصف مجرم لم تستطع أن تثير في قلبه الحنان أرق عواطف محتضر عزيز أحبه حتى العبادة. وخيل إليه انه قد وجد صورة ذاته في شخص هذا المجرم فلم يستطع أن ينام. ولكنه قام في اليوم التالي بنزهة جميلة على ظهر حصانه، وسعي جادا في عمله، حتى شعر بحنان عظيم نحو أقاربه الأحياء وعاد يستمتع بالحياة بلا هواجس وينام بلا ثمة اضطراب.

واشتدت وطأة المرض على الفيكونت فمنعته عن السير. ولم يعد يخرج من القصر. وكان أصدقاؤه وأهله يقضون لديه سحابة يومهم. كان بوسعه أن يصرح بأي سخافة، أو يسرف بشكل جنوني، ويظهر كل تناقض،

أو مزعج مثير، فلا يسمع من أهله عتبا ولا لوما، ولا يسمح أصدقاؤه لأنفسهم بأي مزاح أو معارضة. فكأنهم قد توخوا ضمنا، إن ينزعوا عنه مسئولية أقواله و أعماله. وكان يبدو على الأخص، أنهم يتوخون منعه، بالإنس والملاطفة، عن سماع آخر صرير لهذا الجسم الذي تفارقه الحياة.

وكان الفيكونت يقضي ساعات طويلة بهيجة رأسا لرأس مع ذاته، هذا الضيف الوحيد الذي كان بهمل دعوته لحضور حفلاته خلال الحياة. وكان يشعر، وهو يزين جسمه الحزين الشاكي، ويعزز في ذاته شعور الاستسلام لمشيئة القدر، بينما يستمتع بمشاهد البحر، خلال النافذة، كان يشعر بشيء من الفرح الميلانكولي، ويحيط مشاهد موته وكثيرا ما كان يتأملها وبحور فيها بلا انقطاع كقطعة فنية، مناظر لهذا العالم، لم تكن صورها قد تلاشت من خاطره بعد، وكان بعدها عنه يجعلها في نظرة جميلة غامضة.

أن مشاهد وداعه للكونتس، حبيبته العذرية الكبرى، وكان يسيطر على صالونها رغم امتلائه بأمجاد فناني أوروبا وسادتها العظام، لترتسم خطوطها في خياله منذ الآن ويبدو له حديث لقائها الأخير على هذه الصورة:.

... كانت الشمس قد توارت. وأطل البحر خلال أشجار التفاح بلونه البنفسجي الفاتح. غيوم صغيرة، وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستمرة كالآسي، كانت تطفو على الأفق. سلسلة من النخيل الحزين الحالم، جذوعها غارقة في الظلمة ورؤسها مكللة بهالة من الحمرة، تتقد أغصانها بآخر شعاع ترسله الشمس الغاربة، و كأنها توقد في هذه التريات

المظلمة تيجانا من نور. والنسيم العابث يمزج بين رائحة البحر والحليب المحروق والأوراق الرطبة. لم تكن بلاد سلفانيا قد لطفت من سويداء المساء من قبل مثل هذا المشهد الفاتن.

– أحييتك كثيرا يا بلداسار إلا إني لم أهبك سوى القليل.

– ماذا تقولين، اوليفيان. كيف اعطيتيني قليلا ؟ لقد منحتني الكثير، وأكثر مما طلبت. حتى لكان حواسنا قد اشتركت في حبنا. لقد أحببتك عذراء سماوية وحنوت على كمرضعة. أحببتك حبا لم يفسد براءته أمل بلذة جسدية. ألم تهبيني بالمقابل، صداقة لا مثيل لها، حديثا عذبا مزينا، وباقات من الورود اليانعة. لقد استطعت أنت وحدك، بيديك الأموية المعبرة، أن تطفئي من وهج جبيني الملتهب. لقد سكبت في شفتي الذابلتين عسلا شهدا، ووضعت أمام صفحة حياتي صورا نبيلة رائعة. أعطني. أعطني يدك اقبلها أيتها الحبيبة.

مجرد عدم اكتراث الأميرة بيا، المدلهة بحب كاستريسبو، وكان بلداسار يحبها بجملة قلبه وحسه، كان يرده بين حين وآخر إلى حقيقة قاسية كان يجهد نفسه لتناسيها. وكان يخيل إليه، لأيام قريبة مضت، عندما كان يسير في بعض الحفلات متأبط ذراعها، انه قد كف من قيمة غريمه. ولكنه هنا أيضا، كان يحس بعينيها العميقتين زائغتين في أغوار حب آخر لا يخفيه غير اشفافها على هذا المتيتم العليل.. أما الآن، فمجرد هذه النزهة إلى قربها أضحت مستحيلة، فان اضطراب حركات ساقيه لم يعد يسمح له

بالخروج. ولكنها كانت تأتي لتراه بين حين وآخر. وكأنها اشتركت هي الأخرى في المؤامرة المدبرة لمؤاساته، فكانت تحدثه دائما بلطف بارع لم يعد يكذبه السابق عدم اكتراثها أو نبرات غضبها. وكان يشعر بهذا اللطف والحنان، كما لا يستطيعه أحد سواها، يغمر كيانه ويستولي على مشاعره.

وذات يوم بينما كان الفيكونت ينهض عن كرسيه ليذهب إلى المائدة لحظ خادمه وهو معجب ذاهل بأن سيده يمشي أفضل من قبل. ودعي الطبيب لمعاينته فتريث بعض الوقت قبل أن يقطع برأي. وفي اليوم التالي بدأ الفيكونت يمشي بتحسن ظاهر. وخلال ثمانية أيام سمح له بالخروج. وتخامر أهله وصحبه أمل عظيم. ورأى الطبيب أنها قد تكون في الأصل علة عصبية قابلة للشفاء أخذت مظاهر الشلل العام، وأخذت أعراضها تتلاشى الآن. وقدم شكوكه لبلداسار على أنها حقيقة مؤكدة: "لقد شفيت"!

وابدى المحكوم بالموت فرحا مؤثرا وهو يستقبل العفو عنه. ولكنه، خلال بعض الزمن، بدأ نوع من القلق الحاد ينبثق خلال هذا الفرح الذي أضعفته عادة قصيرة الأمد لم يألفها طويلا. وهنا، في منجى من صدمات الحياة وعواصفها، وفي هذا الجو من الطائف المقررة والهدوء المفروض، والتأمل الحر الطليق، بدأت فكرة الموت تنمو في ذاته، على شيء من الغموض. أخذ يشعر بخوف مهم لفكرة انه سيبدأ الحياة من جديد، ويتحمل من جديد أيضا، الصدمات التي نسي عادة تحملها، ثم يفقد الحنان والعطف الذي أحيط به. وشعر بشكل مبهم

أيضا بأنه لجد سئ إن ينسى نفسه، في غمار اللذة والعمل، بعد إن استطاع التعرف إلى ذاته، هذا الشقيق القريب الذي كثيرا ما حادثه وهو يتأمل المراكب الشراعية تخطط صفحة البحر، وقضى بصحبته الساعات الطوال، هناك بعيدة.. وهنا، في أعماق ذاته.

انه ليشعر الساعة بحنين وشوق، يشبه شوق المغترب، يستيقظ في قلبه فجأة لمعالم وطنه الأول. انه ليشعر بحنين إلى الموت، وقد خيل إليه في البدء انه قد نأى عنة في سفرة أبدية بعيدة.

واقترح بلداسار فكرة، وكان جان جالياس قد عرف أمر شفائه، فعارضها بشدة، ومازحه هازئا. وكانت أم الكسي تزوره منذ شهرين صبحا ومساء، فظلت يومين دون إن تراه. إن هذا لكثير! وكان الفيكونت قد فقد منذ وقت طويل عادة النضال والكفاح فلم يعد يود استئنافها. وذلك أن الحياة لم ترتبطه بمفاتنها. وعادت إليه قواه، وعادت معها رغبات الحياة. بدأ يخرج ويحيا ومات مرة ثانية لذاته. وخلال شهر ظهرت من جديد أعراض الشلل العام. وكسابق عهده أضحى المشي عسيرا عليه، ثم أضحى مستحيلا. جرى هذا باطراد تدريجي تعود معه الرجوع إلى الموت. لقد كان لديه الوقت الكافي ليلوي برأسه.

ولم تكن للنكسة فضائل الإصابة الأولى التي بدأ في آخر عهدها يقطع صلته بالحياة، لا ليراها في حقيقتها، بل لينظر إليها كلوحة. أما الآن، فهو أكثر ما يكون صلفا وغرورا، يتحرق أسفا على اللذات التي لم يعد يستطيع تذوقها.

امرأة أخيه وحدها، وكان يحبها بحنان، كانت تغمر نهاية أيامه بالعطف فتأتي لتراه مع الكسي.

وذات يوم بينما كانت آتية لزيارته جفلت بها الخيل فسقطت إلى الأرض وصدمتها حوافر حصان كان يسير به فارسه الخبب، فنقلت إلى منزل الفيكونت، وقد أغمي عليها وشج رأسها.

وتحامل السائق على نفسه لينقل إلى الفيكونت النبأ الأليم فشحب لون وجهه واصطكت أسنانه و برقت عيناه. و في ثورة غضب رهيب انهال على السائق بالسباب والشتيمة. و كان يبدو أن هياج غضبه يحاول أن مخفي نداء حزينا ناعما، يتخلل فترات هذا الهياج، حتى لوكأنه شكاة عليل إلى جانب الفيكونت الثائر. ولم تلبث هذه الشكوى الضعيفة في البدء، أن خنقت صراخ غضبه فهوى على كرسي يجهش بالبكاء، ثم راح يغسل وجهه كي لا تقلق امرأة أخيه لمعالم حزنه.

وقضى الفيكونت يومين وليلتين إلى قرب نسيبته. وفي الليلة الثانية غامر الطبيب بإجراء عملية خطرة، وهبطت درجة الحرارة في اليوم التالي فتطلعت المريضة بابتسامة إلى بلداسار الذي لم يستطع ضبط دموعه فبكى من الفرح بكاء طويلا.

وعندما جاء إليه الموت رويدا رويدا لم يرد أن يتطلع إليه، أما الآن فقد رأى الموت أمامه فجأة. ورو عه إذ هدده في أعز مخلوق لديه فانحني له راجيا مستعطفا. انه ليشعر الآن بأنه قوي حر، يعتز لشعوره بأن

حياته لم تكن غالية لديه كحياة نسيبته. انه الموت الآن ينظر إليه وجها لوجه، وليست المشاهد التي تحيط بالموت. وكان يريد إن يظل هكذا حتى النهاية، فلا تأخذه من جديد الأكاذيب التي أرادت إن تجعل له نزعا جميلا رائعا فذهبت به بعيدا في تشويه وتحقير أسرار الموت، كما حجمت عنه أسرار الحياة.

الفصل الرابع

غد، ثم غد، وغه آخر بعده، ينزلق هكذا، حتى آخر مقطع يسجله الزمن، طى سفره. كل أمس لنا تمد أضاء البعض المجانين طريق الموت المنبر. انطفئي، أنطفي أيتها الشعلة القصيرة! فليست الحياة سوى شيخ هائم، ممثل مسكين يمشي فيها، أو ينوح على المسرح برهة عندما يأتي دوره.

حكاية يقصها فرابله، مليئة صخبا وثورة، ولا تعني شيئا.

- شكسبير. مكبث –

وأفضت متاعب بلداسار ولواعج نفسه، خلال مرض امرأة أخيه، إلى تفاق مرضه، وعرف من طبيبه إن حياته على الأرض لن تطول أكثر من شهر. وكانت الساعة العاشرة من الصباح، و الغيث يهطل بشدة عندما توقفت عربة أمام القصر، تقل الدوقة اوليفيان.

وكان إلفيكونت قد هيأ لنفسه مشاهد موته: "... في أمسية منيرة، وقد توارت الشمس، وأطل البحر خلال أشجار التفاح بلونه البنفسجي الباهت. غيوم وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستقرة دائمة كالآسي، كانت تطفو على الأفق..."

كانت الساعة العاشرة من الصباح عندما جاءت الدوقة اوليفيان، وكان الغيث ينهمر من سماء قذرة واطية.

أما الفيكونت، وكان قد أتعبه المرض ومهما بنفسه إلى أهداف عليا بعيدة، ولم يعد يشعر بلذائذ الأشياء التي كانت تبدو له في السابق كثمن وفتنة ومجد رفيع للحياة، فقد طلب أن يقال للدوقة انه جد ضعيف. والحفت. ولكنه لم يرد مقابلتها. إنها لم تعد شيئا له قيمة بالنسبة إليه. فقد قطع الموت بسرعة هذه الصلات التي كان يخشى أسرها قبل أسابيع. وقد حاول التفكير فيها فلم ير شيئا يبدو لعيني عقلة. وكانت عينا خياله وغروره قد أغمضتا جفنيهما..

ومع ذلك، فقد استيقظت غيرته بشكل جنوني، قبل أسبوع من موته قبل حفلة راقصة تقيمها دوقة بوهيم وتقود فيها حلقات الرقص الأميرة بيا مع كاستريسيو الذي كان يزمع أن يغادر البلاد في اليوم التالي، إلى الدانمرك.

وطلب حضور بيا فعارضت امرأة أخيه بعض الشيء. وظنهم في البدء يقصدون منعه من رؤيتها، فثار غضبه، حتى أرسلوا في طلبها تواكي لا يزيدوا في ألمه.

وكان لدى حضورها هادئا مسترسلا في حزن عميق فقربها من مروه وحدثها للمال عن حفلة الدوقة :

– لسنا أقرباء يا بيا، فلن ترتدي على ثياب الحداد. ولكني التمس منك أمرا، عديني ألا تذهبي إلى هذه الحفلة:

وتطلع كل منها في عيني الآخر. وطفت على خدتني نواظرهما

روحاهما المعذبتان، والتي لم يستطع إن يجمع بينها الموت. وأدرك ترددها فتقلصت شفتاه بألم وقال لها ملاطفا: اواه لا، لا تعدي، ولا تخلفي بمهد تعطيه لمشرف على الموت، لا تعدي إن كنت غير واثقة.

– لا استطيع إن أعدك يا بلداسار. إني لم أره منذ شهرين ولن أراه بعدها أبدا. وسأظل بلا عزاء إلى الأبد إن لم احضر هذه الحفلة.

– انك محقة، طالما أنت تحبينه. ولكنك تستطيعين أن تفعلي من اجلي شيئا. امنحيني قسما من وقتك في هذه الحفلة، الوقت الذي كنت ستقضينه معي، فما لو كنت حاضرا، لتبعدي عنك نظرات الفضول. فادعي إليك روحي بعض اللحظات، وفكري بي.

– لا استطيع إن أمنحك هذا العهد يا بلداسار، فاني إذ ألازمه في هذه الحفلة، لا يكاد يكون لدي الوقت الكافي لرؤياه. ولكني سأمنحك فرصا أخرى في الأيام التالية:

– انك لا تستطيعين ذلك. ستنسيني سريعا بعد سنة يا للأسف! ولعل قراءة حزينة، بعد ذاك، وفاة احد المعارف، أو أمسية ممطرة تذكرك بي. وأي إحسان تهبينني بذلك! اواه لن استطيع رؤياك أبدا بعد إلا في الروح. ولذا يجب أن يفكر أحدنا بالآخر وسأديم التفكير بك حتى تكون روحي مكشوفة لك دوما، إن أردت دخولها. أما أن تأخرت الضيفة عن الحضور فستحلل أمطار تشرين الأزهار النابتة على قبري و تحرقها شمس آذار، وتبكي روحي جوي وألما. إني لآمل أن يبعث ذكراي في

خاطرك يوم عيد أو رؤية أثر لصديق. وعندها تزهر الأشياء من حولي مثل فعل السحر، حتى لأكني أسمعك و استمتع برؤياك. فكري بالميت يا بيا. ولكن لهفاه! أيستطيع الموت إن يقوم بما لم تستطعه الحياة بكل حرارتها ودموعنا، وكل أفراحنا وحرارة شفاهنا..

الفصل الخامس

"حاكم قلبا نبيلا يتحطم. ليلة سعيدة أيتها الأميرة ألطيفه وليهدهد لك منامك نشيد جيش من الملائكة."

- شكسبير. هملت -

ونقل سرير الفيكونت إلى الغرفة المستديرة التي رآه فيها الكسي يوم عيده الثالث عشر. وكان بوسع المريض أن يطل منها على البحر والمرفأ من جهة، ومن الجهة المقابلة، على الغابات والحقول.

وكان الهواء رطبا لطيفا ففتحوا النوافذ المطلة على البحر، وكان مركب شراعي يقوم بجارته السواري استعدادا للرحيل، وعلى ظهره، في ساري المقدمة، فتى في الخامسة عشرة من عمره. وكان مخيل لمن ينظر إليه، انه على وشك السقوط، بعد كل موجة. إلا انه كان ثابتا فوق ساقيه القويتين، وفي يده شبكة صيد، وغليونه يشتعل بين شفتيه.

ولفحت خد بلداسار هبة الريح نفسها التي كانت تنفخ الشراع فأطارت ورقة في الغرفة. وأدار بلداسار رأسه كي لا يرى هذه الصورة السعيدة لملذات أحبها بكليته ولم يعد يستطيع تذوقها. ثم تطلع إلى المرفأ. وكان مركب آخر، ذو ثلاث سواري يتهيأ للرحيل. وقال جان جالياس: " انه الشراع المسافر إلى الهند ".

ولم يكن بلداسار يميز بين الأشخاص الواقفين على جسر المركب، يلوحون بمناديلهم، ولكنه كان يحزر في عيونهم هذا – الظمأ للمجهول. أن أمام هؤلاء مجالا نسبها الحياة والمعرفة والأحاسيس!....

ورفعت المرساة فارتفع صوت، واهتزت كنة المركب على ادم البحر القاتم متجهة إلى الغرب، حيث يمزج النور، خلال الضباب المذهب، بين الغيوم والمراكب الصغيرة، ويتمتم في أذان المسافرين وغردا مبهمة مغرية.

وطلب بلداسار إن تغلق النوافذ التي تشرف على البحر وتفتح النوافذ المطلة على الحقول. ولطلع إلى السهل. وكان لا يزال بشمع أصوات الوداع تتصاعد من المركب الشراعي ويرى بعيني خياله، الفتى البحار ببرمي شباكه وغليونه في فمه.

وأرهف مجمعه لحظة فسمع صوتا فضيا عميقا لا تكاد تلتقطه أذن، تاروج من بعيد كخفقان القلب.. وكان صوت جرس قرية نائية اجتاز الأنهر، وطوي في هدأة الجو، فراسخ كثيرة من السهل ليطرق أذنه الأمينة. وكان صوتا أنيسا قديما، وانه ليستمع إلى دقات قلبه"

يخفق على رفع نغماته الرتيبة. وكان بلداسار في كل مراحل حياته.. عندما يسمع صوت الأجراس، يذكر بالرغم عنه، صوتها اللطيف تحمله إلى أذنه نسمات المساء، عندما كان يعود إلى القصر من طريق الحقول، وهو حدث صغير بعد.

في هذه الآونة استدعى الطبيب أهل بلداسار وقال لهم: هي النهاية!

وكان بلداسار هادئا وعيناه مغمضتين وقلبه يصغي إلى الأجراس- التي لم تكن تسمعها أذنه، وقد شلها الموت المغير. وتراءت له أمه وهي تقبله لدى عودته في المساء. ورآها وهي تدفئ قدميه بيدها في ليالي الشتاء، وتظل واقفة إلى جانبه، إن استعصى عليه المنام. وتذكر أيام طفولته عندما كان يقرأ (روبنصن كريزري)، وأمسيات الحديقة عندما كانت أخته تغنى إلى قربه. وتذكر كلمات أستاذ الموسيقي الذي تنبأ له بأنه سيصبح موسيقيا كبيرا، وتأثر أمه لهذه النبوءة، تحاول عبثا إخفاءه.

أما الآن فلم يعد لديه وقت يحقق فيه أماني أمه وشقيقته، وقد خدعها بقسوة. وتراءت له الزيزفونة الكبيرة التي عقد خطوبته في ظلها. وتذكر يوم فسخ الخطوبة و كيف استطاعت أمه وحدها أن تدخل العزاء إلى قلبه. وخيل إليه انه يعانق خادمته العجوز، وبمسك بيده قيثارته الأولى.

رأى كل هذا في أفق بعيد لامع، وحلو حزين كهذا الأفق الساجي تطل عليه النوافذ من جهة الحقول.

رأى كل هذا ولم تمض ثنيتان على كلمة الطبيب الذي سمع دقات قلبه وقال إنها النهاية.

وجثا الكسي وأمه، مع دوق دي بارم الذي وصل في تلك البرهة. ووقف الخدم خاشعين يبكون أمام الباب المفتوح.

القتلة

- ارنست همنجوي –

فتح باب المطعم ودخله رجلان جلسا أمام القوس. وسألهما جورج عما يتناولان. قال أحدهما: لست أدري، ماذا تريد إن أكل يا (ال)

– لا أعرف ما أريد إن التهم، إني حائر.

وكان الظلام قد بدأ يخيم في الخارج، واشتعل وراء البلورنور المصباح في الشارع. واخذ الرجلان بتفحص قائمة الطعام.

وكان إلى الجانب الآخر من القوس نيك ادامس يتطلع إلى القادمين.

قال احد الرجلين: أريد موزات خنزير مع مربي التفاح و معجون البطاطس.

– هذه المأكل غير مهيأة بعد.

– لماذا تحشرونها في القائمة إذن ؟

وكان تفسير جورج إنها للعشاء، وانه يستطيع تقديمها لها في الساعة السادسة. وتطلع جورج إلى الساعة المعلقة على الحائط خلف القوس: إنها الساعة الخامسة.

وأجابه احد الرجلين: ولكن العقارب تشير إلى الخامسة والثلث

– ساعتنا تتقدم عشرين دقيقة.

– لتنزل عليها اللعنة، قل ما بوسعك أن تقدمه لنا.

– السندوتش بأنواعه، البيض مع الجانبون، البيض بالزبدة، الكبد المقلي، والشرائح.

– أعطني دجاجا مع المرق وجليانا مع معجون البطاطس.

– هذا للعشاء.

– ماذا ؟ كل ما نطلبه يضحي للعشاء. هكذا تؤدون عملكم هنا.

– بوسعي أن أقدم لكم البيض مع الجانبون، البيض بالزبدة الكبد المقلي..

– وقال الرجل الذي أسماء رفيقه (ال): أما أنا فاحضر لي البيض مع الجانبون. وكان يرتدي قبعة عالية ومعطفا أسود بازرار على الصدر. وكان وجهه صغيرا ابيض وشفتاه ملصقتين، و في يديه قفازان، وحول عنقه لفحة حرير.

وقال الآخر: أعطني البيض بالزبدة. وكانا بذات الطول تقريبا تختلف ملامحهما بعض الشيء، ولكن لباسهما واحد وكأنها توأمان ذات المعطف الضيق، ولفحة الحرير والقفازان. وكانا جالسين وصدرها إلى الأمام، وقد اسندا كوعيهما إلى القوس.

– الديكم شيء للشراب ؟

– بيرة، بيرموت، شراب التفاح.

– قلت هل لديكم شيء للشراب.

– لا شيء غير ما ذكرته.

– حسن. وتوجه بالكلام إلى رفيقه مشيرا إلى الرجل الجالس في الطرف الثاني من القوس: انه غلام مرح.. ما اسمه؟

وأجابه جورج: سميث.

والتفت (ال) إلى صديقه: هل سمعت هذا الاسم ؟

– أبدا.

وسأل (ال): ماذا يصنعون هنا في الليل ؟ فأجابه صديقه :

يتناولون العشاء.

– أترى هذا صحيحا ؟

– صحيح على التأكيد.

– انك خفيف الظل يا جورج، أليس كذلك.

– ولكن، كلا. أتظن انه خفيف الظل ؟

أما إنها فاعتقد انه مغفل. قالها (ال) وهو يلتفت إلى ادامس :

– ما اسمك ؟

– ادامس

– هاك شابا ظريفا آخر. أليس كذلك يا ماكس. إن المطعم مليء بالظرفاء.

ووضع جورج على القوس صحنين احدهما بيض مع الجانبون والثاني بيض بالزبدة. ووضع على حدة صحنين من البطاطس المقلي وأغلق كرة المطبخ. وسأل جورج: أيهما لك ؟ – إلا تتذكر.

وقال ماكس: البيض مع الجانبون، أيها الغلام المرح. وانحنى يجتذب إليه الصحن. وبدآ بالتهام الطعام دون أن يخلعا قفازيها. وكان جورج يتطلع إليها وهما يأكلان.

لماذا تنظر أنت هكذا ؟ – أنا ؟كلا.

– لا تقل هذا. كنت تنظر إلى.

– دعه يا ماكس، انه غلام مسكين، وقد يقصد المزاح.

وضحك جورج.

ليس من حاجة للضحك. أتفهم. لا حاجة بك للضحك أبدا.

وهتف جورج: حسن

والتفت ما كس نحو ال: أترى ؟ يعتقد أن هذا حسن. اسمعه يري إن الأمر حسن. هذا جميل.

– اواه انه مفكر جدي. واستمرا في الأكل. وسأل (ال) رفيقه ماكس: ما اسم الغلام الصغير الجالس في طرف القوس: اوه! أنت أيها الغلام. ادخل وراء القوس مع رفيقك.

وتساءل ماكس وهو يتجه إلى (ال): ماذا أصابك.

– لاشيء. واتجه إلى ادامس: (أنصحك بالدخول وراء القوس.) ومر ادامس داخل القوس.

وتساءل جورج بدوره: ماذا؟ ماذا أصابك؟

– هذا ليس من شأنك. من داخل المطبخ؟

– العبد.

– من يكون هذا العبد ؟

– العبد الطباخ.

– قل له إن يحضر إلى هنا.

– لم هذا ؟

– قل له إن يحضر إلى هنا.

– في أي مكان تظن نفسك؟ – نعرف ذلك أيها الأحمق. هل تعتقد إننا نتكلم لمجرد المزاح وقال له رفيقه: نعم انك تمزح: لم تتناقش هكذا مع الغلام. وقال لجورج: اسمع، قل للعبد أن يحضر إلى هنا.

– ماذا تريدون أن تفعلوا به ؟

– لن نفعل به شيئا. وما ترانا نفعل بعبد ؟

ودفع جورج الكرة التي تشرف على المطبخ: سام، تعال إلى هنا لحظة. وفتح الباب ودخل العبد: ماذا تريدون ؟

وحدجه الرجلان بنظرة: حسن أيها الفتى وقف هنا ولا تتحرك. و أجاب سام: نعم يا سيدي. وكان منتصبا بقامته المديدة، تحيط بخصره (حلابة) الطبخ ونزل (ال) عن القوس: إني ذاهب إلى المطبخ مع العبد والغلام رقم (٢): ادخل أيها الصغير. وأنت فابقي هنا مع جورج

ودخل (ال) المطبخ مع ادامس وسام الطباخ، و أغلق خلفهما الباب. وظل المدعو ماكس على القوس أمام جورج. ولم يكن يتطلع إليه، بل إلى المرآة الممتدة وراء القوس، وكان المحل مطعما قبل أن يتحول إلى مشرب. وقال ماكس وعيناه مثبتتان في المرآة: لماذا لا تقول شيئا أيها الفتى.

– ما هذه القصة كلها ؟

– اواه، (ال) يريد أن يعرف معنى القصة. وأجابه صوت (ال) من المطبخ: لم لا تذكر له شيئا عن القصة.

وسأل ماكس جورج: و ما رأيك أنت في هذه القصة.

– لا أدري

– يجب إن تكون لديك فكرة.

ولم يكن ماكس يفارق بعينية المرآة لحظة وهو يتكلم.

- لا أريد إن أقول لك.

- اواه. (ال) إن الغلام الصغير لا يريد أن يعطي رأيه في القصة

وأجابه (ال) من المطبخ: إني أسمعك جيدا. وكان قد سد كرة المطبخ بزجاجة من عصير الطماطم. وجاء من المطبخ يقول لجورج: اسمع أيها الصغير، ابتعد قليلا عن القوس. وأنت يا ماكس تحول إلى اليسار قليلا.. وكان يدل مظهره على مصور يهيئ التقاط صورة لرهط من الناس.

- قل أيها الغلام. ماذا تعتقد انه سيجري ؟

ولم ينبس جورج بكلمة. وقال ماكس: سأقوله لك: جئنا نقتل رجلا اسوجيا. اتعرف رجلا اسوجيا يدعى أولي اندرسون.

- نعم.

- انه يأكل هنا في المساء أليس كذلك ؟

- أحيانا.

- يأتي في الساعة السادسة. صحيح ؟

- إذا جاء.

- نعرف هذا أيها الصغير. حدثني بشيء آخر. هل تذهب إلى السينما. - أحيانا.

– يجب إن تتردد على السينما. فهي لمثلك نعمة عظمى.

– لماذا تريدون قتل أولي اندرسون ؟ ماذا فعل بكم ؟

– لم تتح له فرصة ليفعل بنا شيئا، أنه لم يرنا قط.

وقال (ال) من المطبخ: ولن يرانا سوى مرة واحدة.

– إذن لماذا تريدون قتله.

– سنقتله لنؤدي خدمة العمود الكهرباء أيها الغلام المرح. وقال (ال) من المطبخ: أغلق فمك، انك تتكلم كثيرا.

– حسن ولكن يجب إن نروح عنه قليلا، أليس كذلك ؟ وقال لجورج: اسمع. إذا جاء احد من رواد المطعم تقول له إن الطباخ قد خرج. وإذا أصر تقول له انك ذاهب لتعدله أكله بنفسك. أفهمت أيها الغلام المرح.

– حسن و ماذا تصنعون بعدها

– هذا يختلف.. إنها أشياء لا يمكن التنبؤ بها مقدما. وتطلع جورج إلى المرآة. وكانت الساعة السادسة والربع. وفتح باب المطعم فدخله احد مفوضي الترام.

– هللو جورج، هل نستطيع أن نأكل شيئا ؟

– لقد خرج سام ولن يعود قبل نصف ساعة.

– إذن فانا مضطر إن اذهب إلى محل آخر.

وتطلع جورج إلى الساعة. وكانت تشير إلى السادسة والثلث.

– لقد قلت هذا جيدا أيها الفتي.. انك جنتلمان حقا.

– وقال (ال) من المطبخ: كان يعلم إني مستعد إن ألهب دماغه

– لا. لا تقل هذا. إن الغلام الصغير جنتلمان حقا.

وفي الساعة السادسة والدقيقة الخمسين قال جورج: انه لن يأتي بعد الآن. وخلال هذا دخل المطعم رجلان، وذهب جورج مرة إلى المطبخ ليعد سندويشا بالجانبون والبيض فرأى (ال) والقبعة العالية على مؤخرة رأسه، جالسا على كرسي قرب النافذة وفي يده بندقية صيد. وكان ادامس و الطباخ ظهرا لظهر في إحدى الزوايا و في فمهما كمامة. واعد جورج السندوتش ولفه بورق مزيت. ووضعه في كيس وخرج. وذهب الزبون بعد أن دفع الثمن.

وقال ماكس: الغلام يعرف أن يصنع كل شيء. انك تستطيع أن تسعد امرأتك أيها الصغير.

وقال جورج: مستحيل. إن صاحبك أولي اندرسون لن يأتي.

– سنعطيه فرصة أخرى، عشر دقائق. وكان ماكس يتطلع إلى المرآة. وأشارت عقارب الساعة إلى السابعة، ثم السابعة وخمسة.

– هيا بنا، الأفضل إن نذهب، انه لن يأتي.

– وقال (ال) من المطبخ: لنعطه خمس دقائق أخرى.

وخلال هذه الدقائق دخل احدهم فقال له جورج: إن الطباخ مريض..

– لم لا تحضرون طباخا آخر. كيف تقومون بمهام المطعم إذن؟ وخرج.

وقال ماكس: لنطلق سبيلهم يا (ال)، فلن يتكلموا.

– أتظن ؟ انك تهزر كثيرا.

– يا للشيطان. يجب إن نتسلى قليلا.

– ولكنك تتكلم كثيرا. وخرج من المطبخ. وكانت فوهتا بندقيته القصيرة تنتفخان تحت معطفه الضيق، وقال جورج: إلى الملتقى أيها الغلام المرح بوسعك أن تعتز فانك لفتي لامع.

وقال ماكس: هي الحقيقة. يجب إن تشتغل في السباق أيها الفتى.

وخرج الرجلان. وتطلع إليهما جورج خلال البلور فرآهما يجتازان الشارع ويبدو إن في قبعتهما السوداويين ومعطفيهما الضيقين كأنهما زوج من مهرجي الأوبرا.

ودخل جورج المطبخ ففك وثاق ادامس والطباخ.

وقال سام الطباخ: سيكون لي معهما حساب عسير هذا ما أقوله. على الضبط. سيكون لي معها حساب..

ونهض ادامس وهو يترنح. كانت أول مرة توضع في فمه كمامة: إنها لقصة طريفة !

وقال جورج: جاءا لقتل اولي اندرسون، وكانا يقصدان إن يطلقا عليه الرصاص لدى دخوله. والتفت إلى ادامس: يحسن بك أن ترى اولي اندرسون.

– حسن. أين يسكن ؟

– في بنسيون ايرس

– سأذهب إليه حالا.

وكان القنديل يستطع في الخارج، خلال الأغصان العارية. ومشي باتجاه خط الترام. ثم سار يمينا في طريق جانبية، وكان بنسيون ايوس ثالث بناء في الشارع. وصعد ادامس درجتين ودق على الجرس فظهرت على الباب امرأة.

– اولي اندرسون هنا ؟

تريد رؤيته ؟

– نعم. وسار وراء المرأة في الرواق. وتوقفت أمام إحدى الغرف ودقت الجرس.

– من هذا ؟

– شخص يريد مواجهتك يامستر اندرسون.

– أنا، ادامس.

– تفضل.

ودفع ادامس الباب ودخل الغرفة فرأى اولي اندرسون مستلقيا على

سريره وهو في كامل ملابسه وقد تخطى السرير جزء من قدميه. وكان ملاكما من أبطال الوزن الثقيل سابقا.

وسأل دون أن يتطلع إلى ادامس: ما القصة ؟

– كنت في المطعم فدخل رجلان شدا وثاقي ووثاق الطباخ وقالا إنهما يريدان قتلك.

ولم ينبس اولي بكلمة.

– وقد أدخلانا المطبخ وكانا يريدان أن يطلقا عليك النار متى دخلت لتناول طعامك. وقد قال لي جورج أن آتي لأحذرك.

سأعطيك عنهما بعض التفاصيل..

– ليس من حاجة، ولكني اشكر لك مجيئك على أي حال.

– هل تريد إن اخطر البوليس.

– كلا هذا لن يجدي نفعا.

– إلا استطيع إن افعل شيئا من أجلك.

– كلا، ليس من يستطيع أن يفعل من اجلي شيئا.

– إلا تعتقد أنه قد يكون هذا تهديدا.

– لا ليس بتهديد. وكل ما أمكنني عمله إني لم استطع إن أقرر الخروج من غرفتي، فبقيت فيها طوال يومي.

– ألا تستطيع مغادرة المدينة.

– كلا، لقد سئمت هذه اللعبة، ولست أرى لي مخرجا، و لكني سأقرر الخروج بعد حين على أي حال.

– إذن، فانا عائد إلى المطعم.

– إلى الملتقى. وشكرا مرة ثانية لمجيئك. وكان يتكلم دون إن يتطلع إلى ادامس ورأسه متجه إلى النافذة..

وخرج ادامس بعد إن القي نظرة أخيرة على الجسم الكبير المدد على السرير. وقالت له الخادم في الخارج: لقد ظل طوال اليوم في غرفته. اعتقد انه مريض. وقد قلت له: يجب أن تخرج للنزهة يا مستر اندرسون، في مثل هذا اليوم الخريفي الجميل، ولكنه لم يكترث.. إني آسفة، فهو رجل طيب جدا. كان ملاكما، إلا تعلم.

لا اعرف ذلك.

– ليس ما ينم عنده عن ممارسة هذه المهنة، ألا بعض الخدوش في وجهه. وكانا يتكلمان وراء الباب المؤدي إلى الشارع. وأضافت: انه وديع كالحمل. – ليلة سعيدة.

وسار ادامس في الشارع المظلم حتى الزاوية ذات المصباح، ثم تبع خطوط الترام إلى المطعم، وكان جورج وراء القوس.

– هل رأيته ؟

– نعم. وهو يلازم غرفته ولا يود الخروج.

– هل قلت له.

– انه يعرف ذلك. ولا يريد أن يفعل شيئا.

– سيظفرون بجلده إذن.

– هكذا يبدو لي. والأرجح عندي أن يكون قد اشترك في قصة غير نظيفة، عندما كان في شيكاغو.

ولزما الصمت. وانحنى جورج فالتقط منديلا مسح به القوس،. وقال ادامس: إني أتساءل عما قد يكون فعله هناك.

– من يدري. ولكن احدهم دفع مالا، ولهذا يقتلون الناس.. وقال ادامس: سأغادر البلاد. نعم هذا ما يجب عمله. إني لا استطيع أن أتصوره هناك في غرفته، وهو يعلم انه سيقتل متى خرج، هذا مريع.

النجوم (عن لسان راع)

- الفونس دوديه -

حينما كنت أرعى الماشية في جبال (ليبورن) كان يصدف لي إن أظل لوحدي مدة أسابيع، لا يصحبني غير كلبي (لابري) و القطيع. ولكني كنت القي بين حين وآخر راهب جبل (أور) يتحرى عن أزهار جبلية، أو أرى بعض فحامي (البيامون) بوجوههم الكالحة. وكانوا أناسا طيبين اعتادوا الصمت لفرط العزلة ففقدوا لذة المحادثة والاجتماع، حتى أنهم ما كانوا يأبهون لما يجري هناك على السفوح، في المدن والقرى.

وكنت أتلقى مئونتي من المزرعة كل خمسة عشر يوما. وعندما كنت أسمع أجراس البغلة تسير في الطريق المصعد نحوي حاملة ذخيرتي العزيزة، راستبين عن بعد رأس خادم المزرعة الصغير (ميار و) أو شعر العمة العجوز (نوراد) كانت تغمرني موجة من السعادة لا توصف فاجلس لأستمع بلذة وشغف إلى أخبار البلاد في السهل، الولادات والأكاليل وغيرها..

ولكن أنباء ابنة معلمي الآنسة ستيفانيت الحلوة كانت تشغلني بصورة خاصة. فكنت اسأل، دون أن اتخذ مظهرا فاضحا من الاهتمام عما إذا كانت ترتاد الحفلات وتحضر الأعياد، وفيها إن كانت قد بدأت تستقبل العشاق الخاطبين.

أما لمن يريد إن يسألني عما كان يهمني مثل هذا، أنا الراعي المسكين في هذا القفر، فأقول إني كنت في العشرين من عمري. وكانت ستيفانيت أجمل صبية رأيتها في حياتي.

وجلست مرة، وكان يوم أحد، انتظر ذخيرتي. وصدف يومها أن جاءتني متأخرة فقلت لنفسي في الصباح، إنها صلاة الأحد شغلتهم عنى. رهبت عند الظهر عاصفة هوجاء ممطرة فقلت: قد تكون البغلة لم تستطع السير، لو عورة المسالك في مثل هذا الجو.

وصحت السماء حوالي الساعة الثالثة وبدا الجبل نديا لامعا تحت بريق الشمس والماء، فسمعت خلال حفيف الأوراق وهدير السواقي المتضخمة، صوت أجراس البغلة ترن جذلانة مرحة كأجراس العيد.

ولكن!.. لم يكن الصغير ميارو الذي يقودها، ولا العجوز نوراد: بل الآنسة ستيفانيت ذاتها وقد تربعت فوق أكياس القش وورد وجنتيها نسيم الجبال المنعش، بعد العاصفة.

وعلمت منها، وهي تنزل عن بغلتها إن الصغير ميارو مريض والعمة نوراد ذهبت تقضي بضعة أيام لدى أولادها.

وخيل إلي وأنا أتأملها مسربلة في حالة الأحد، بشريطها المزهر وتخاريم فسطانها اللامع إنها اقرب إن تكون قد تأخرت في حفلة رقص من أن تكون ضلت الطريق بين الدغل والمليق.

يا للمخلوقة اللطيفة!

لم تكن عيني لتمل النظر إليها. والحق لم أكن قد رأيتها عن كثب من قبل. ففي الشتاء عندما كنت انزل بالقطيع إلى الحقل وأعود في المساء لتناول عشائي، كانت كثيرا ما تجتاز البهو متوثبة مرحة وهي في كامل زينتها وتبدو عليها بعض مظاهر الترفع والزهو. ولم تك تكلم أحدا من الخدم. وها هي الآن أمامي، ولي وحدي! ألم يكن في هذا ما يدعو إلى الخبل ؟

وأفرغت ستيفانيت من السلال المؤنة المعروفة، و راحت تتطلع من حولها باهتام وشغف. ثم رفعت بعضا من ذيل فسطانها الجميل خشية أن يتلوث، ودخلت الحظيرة تتطلع إلى البقعة التي أنام فيها: فراش القش، جلد الغنم، معطفي الكبير المعلق على الحائط، بندقيتي. كل هذه الأشياء كانت موضع اهتمامها ومثارا لهجتها وحبورها.

– هنا تعيش إذن يا راعي المسكين. لشد ما يضرك إن تظل وحدك دائما. ماذا تعمل ؟ وبماذا تفكر ؟

وكان بودي أن أقول لها: أفكر فيك يا سيدتي. ولم أكن – بكاذب.

ولكن اضطرابي كان على درجة من الشدة حتى لم أجد كلمة واحدة أقولها. وأظن الخبيثة شعرت بذلك فاستلذت أن تضاعف من ارتباكي.

– وحبيبتك أيها الراعي. الا تصعد لتراك أحيانا؟ قد تكون على التأكيد، المعزاة الذهبية أو الجنية (استيريل) التي يحلو لها أن تسير على قمم الجبال.

وبدت لي ستيفانيت ذاتها كالجنية استيريل بضحكتها الحلوة ورأسها العابث وهذه السرعة الخاطفة تتوخى بها العودة. مما أضفي على زيارتها طابع الرؤيا المسحورة.

– وداعا أيها الراعي.

– على أجنحة السلامة يا سيدتي.

وها هي تذهب بالسلال الفارغة وتتوارى في المنحدر فأخال الحصى التي تتناثر تحت حوافر بغلتها تقع واحدة واحدة فوق قلبي.

وسمعت طويلا أصوات الحصى...

وظللت إلى آخر اليوم في شبه غيبوبة لا أجرؤ على القيام بحركة خشية أن يتبدد حلمي اللذيذ.

وفي المساء، وكانت جوانب الأودية قد بدأت تتشح بالزرقة، وحيوانات قطيعى تتدافع لندخل الحظيرة شراذم، سمعت صوتا يناديني من جهة المنحدر. ولم ألبث أن رأيت ستيفانيت، وقد زال مرحها، واقفة أمامي ترتجف من البرد والخوف والبلل. فقد أوشكت أن تغرق وهي تجتاز نهر (السورج) بعد إن غذته السيول.

وكان الأمر الرهيب إلا يكون لها ثمة مجال للتفكير بالعودة إلى المزرعة في هذا الوقت، فهي لن تستطيع أن تتبين الطريق. وليس بوسعي أن أترك القطيع.

وكانت فكرة قضاء الليل على الجبل تضنيها كثيرا وبصورة خاصة، لما تسببه لأهلها من اضطراب وقلق.

وسعيت جهدي إلى تهدئة روعها. قلت لها إن الليالي قصيرة في تموز، فان هي إلا ساعات سلئة وتنقضي. وأضرمت نارا كبيرة فجففت قدمها وفسطانها المبلل. ثم قدمت لها حليبا وجبنا.

ولكن آنستي الصغيرة لم تكن تفكر بطعام أو تدفئة. و كنت أرى الدموع تترقرق في عينها فتحدر بي رغبة ملحة، إلى البكاء أنا أيضا.

وكان الليل قد أرخى سدوله ولم يبق على قمة الجبل إلا غبار متناثر من أشعة الشمس وبخار من نور المغرب.

ورغبت إلى سيدتي إن تدخل لتستريح في الحظيرة. ووضعت فوق القش جلد حمل جميل، وتمنيت لها ليلة سعيدة، ثم جلست أمام الباب.

واني لأشهد على ربي إن أي فكرة سيئة لم تجل بخاطري، رغم نار الحب الذي كان يضطرم سعيرا في دمي، لا شيء غير فخر واعتزاز عظيم تملكني وأنا أفكر إن في زاوية الحظيرة، قرب هذا القطيع المعجب المذاهل، تنام ابنة معلمي كنعجة عزيزة تفوق نعاجي كلها بياضا وثمنا، وإنها هنا في حراستي.

لم تبد لي السماء من قبل مثل هذا الغور، ولم أر النجوم على مثل هذا البريق.

وفتح باب الحظيرة فجأة وظهرت أمامي ستيفانيت الحلوة. لم تكن تستطيع إن تنام. كانت النعاج تثغي في أحلامها.. أو تحرك الأعشاب اليابسة فتنبعث لها ضجة. وآثرت أن تأتي إلى قرب النار، فوضعت على كتفها معطفي الضخم ورميت أحطابا في النار وظللنا جالسين الواحد قرب الآخر دون أن ننبس بكلام.

إن الذين يقضون الليل تحت النجوم يحسون، في اللحظة التي يستسلمون فيها للكرى، بعالم سحري عجيب ينبثق أمامهم في غمرة العزلة و السكون، فتغني لهم الينابيع على أكثر من الصفاء، ويوقد لهم المستنقع شعلات صغيرة، وتتهادى أمامهم أرواح المغاور طليقة حرة.

وانك لتحس في الفضاء حفيفا وتمتمات لا تكاد تشعر بها كأنما هي أصوات الأغصان وهي تمتد و الأعشاب التي تنمو. فالنهار مجال الكائنات الحية أما الليل فللاشاء. وإذا كنا لم نألف هذا فإننا نشعر بشيء من الخوف. ولهذا كانت ستيفانيت ترتعش وتلتصق بي لأقل صوت أو حركة.

وتصاعد ألبنا صراخ طويل متماوج كأنه أنة شاك حزين مبعثها المستنقع الذي يتقد من بعيد. وفي الوقت نفسه هبطت فوق رؤسنا نجمة مرقت كالسهم وكأن الأنين الذي سمعناه يحمل معه نورا.

وسألتني ستيفانيت بصوت خافت: ما هذا ؟ قلت: نفس طيبة دخلت الجنة يا سيدتي. ورسمت شارة الصليب فاقتدت بي، وظلت برهة تنصت بخشوع ثم قالت :

– أصحيح أنكم سحرة أيها الرعاة ؟

– أبدا يا سيدتي. ولكننا نعيش هنا قرب النجوم ونعرف عنها أكثر مما يعرفه سكان السهول.

وكانت تتطلع إلى السماء ورأسها مسند إلى يدها يحيط بها جلد الخروف، فكنت أخاها راعيا صغيرا هبط إلى من السماء.

– آه لكم أري الليلة من نجوم. لم يسبق لي أن شاهدت منها كل هذا العدد.. الله ما أجملها. هل تعرف أسماءها أيها الراعي ؟

– اجل يا سيدي. هاك.. أن فوق رؤسنا طريق القديس جاك (درب التبان) وهو يتجه من فرنسا إلى اسبانيا. إن القديس جاك هو الذي رسم هذا الطريق ليهدي سبيل البطل شارلمان. وترين عن بعد عربة الأرواح (الدب الكبير) على أركانها الأربعة. والنجوم الثلاثة التي ترينها أمامنا هي الوحوش الثلاثة. وهذه النجمة الصغيرة اللاحقة بالثالثة هي سائق العربة.

ألا ترين هذه النجوم الصغيرة و كأنها الغيث المنهمر. إنها أرواح لم يقبلها الله في ملكوته.

وهناك الملوك الثلاثة (اوربون) وهي بمثابة ميزان توقيت لنا نحن الرعاة، فليس إلا أن ننظر إليها لنعرف، الآن مثلا، إن الزمن قد جاوز نصف الليل.

ولكن أجمل النجوم يا سيدتي هي نجمتنا. نجمة الرعاة. إنها تضيء سبيلنا في الفجر عندما نخرج بالقطيع، وفي المساء لدى عودتنا إلى

الحظيرة. ونحن نسميها (ماجيونه) ماجيلونه الجميلة التي تطارد (ساتورن) وتتزوجه كل سبع سنان.

– كيف أبها الراعي. النجوم تتزوج!

– اجل يا سيدتي.

وعندما بدأت اشرح لها كيف يتم هذا الزواج شعرت بشيء طري ناعم يرتمي بلطف على كتفي. وكان رأسها المثقل بالنعاس يتكي على صدري، وينبعث منه، مع حفيف الأشرطة والدنتيلا عطر شعرها المتماوج.

وظلت هكذا بلا حراك إلى اللحظة التي بدأت فيها النجوم تضاءل ويشحب لونها أمام ضياء النهار المتصاعد.

وأنا ؟!..

كنت أتأملها نائمة، وفي أعماق نفسي شيء من الاضطراب ترد عني غائلته قداسة هذه الليلة اللطيفة الساجية، والتي لم تكن لتبعث في نفسي غير الأفكار النبيلة الجميلة..

والنجوم من حولنا، مستمرة في سيرها الهادئ، راضية طبعة كقطيع كبير.

وكان خيل لي أحيانا إن إحدى هذه النجوم، ا كثرها ضياء. ورقة، قد ضلت طريقها، فجاءت تتكيء على صدري وتنام.

يتضمن هذا الفصل من كتاب المراهق لدستويفسكي آراء القصصي الروسي العظيم في مشاكل إنسانية واجتماعية خطيرة يضع لها حاولا

بوحي من وجدانه النير، وفيض من حنان قلبه الكبير.

والمراهق قصة دستويفسكي نفسه، في عهد نشأته الأولى، يعرض فيها للعوامل التي أثرت في بناء كيانه النفسي والخلقي. ومنها عقدة عائلية تتعلق بنسبه، هي محور هذا الفصل، ويعبر عنها بكلمة (المهم).

فصل من المرهق

- دستويفسكي -

... وجاء لزيارتي غداة اليوم الذي تلا حادث قطيعتنا. و كنت خارج البيت فجلس ينتظرني. وقد كنت أتوقع مجيئه بين ساعة وأخرى طوال هذه الأيام الثلاثة، فلما رأيته وأنا أهم بدخول غرفتي الصغيرة غشيت عيني سحابة وخفق قلبي بشدة فتسمرت على العتبة. ولكنه لم يكن وحده لحسن الحظ، فقد رأى صاحب البيت أن يتعرف إلى الزائر ليبدد عنه سأم الانتظار، واخذ يقص عليه حكاية ممتعة.

كان مؤجري مستشارا شرعيا في الأربعين من عمره، يعيل زوجة مصدرة وولدا عليلا، و كان دمث الأخلاق، هادئ الطبع، شديد الميل إلى الانكشاف والتبسط. وقد سرني وجوده. بل أنقذني من هذا الموقف. وألا، ماذا أحدث فيرسيلوف.

كنت واثقا من إن فيرسيلوف هو الذي سيأتي لزيارتي أولا، كنت أتمنى. إذ لم يكن بوسنى أن أبادره بالزيارة مهما كلف. تماما كما كنت أتمني إذ ومم يكن بوسعي إن أبادره بالزيارة مهما كلف ولم يكن هذا عنادا مني. بل على التأكيد محبة له واستجابة لنوع من غيرة الحب، إني لا استطيع التعبير عن هذا ولن يجد القارئ عندي على أي حال، شيئا من البلاغة.

ورغم إني كنت أتوقع مجيئه خلال هذه الأيام، لم استطع أن أتصور مقدما ما الذي سنتحدث به بادئ الأمر، بعد كل ما حدث.

– آه، هاك إذن ؟ ومد لي يده بولاء دون أن ينهض: اجلس هنا إلى قربنا. أن ببير ليتوفتش يقص علينا شيئا لذيذا عن الصخرة التي تقع إلى جانب ثكنات بولس... أر في تلك الأنحاء.

وأجبته مسرعا وأنا اجلس على كرسي إلى جوارهما: اجل، اعرف هذه الصخرة.

وكانت غرفتي تشكل مربعا ضلعه أربعة أمتار فقط فكنت أتنفس بمشقة. وارتسمت على ثغر فيرسيلوف اشراقة من شعور الارتياح. بلا شك لم يكن مطمئنا. كان يتوقع مني بعض الحركات فلما مرت هذه الفترة الأولى شعر بارتياح.

– ببير ليتوفتش. اعد قصتك من بدايتها.

كانا قد توصلا إذن إلى المناداة بأسمائهما مجردة من الألقاب.

– جرى هذا في عهد القيصر المرحوم.. قالها ببير وهو يلتفت إلي. وكان يتكلم بعصبية وشيء من الحرج كأنه يجهد سلفا لمعرفة الأثر الذي يتر كه حديثه: تعرفون إذن هذه الصخرة. صخرة صماء تتوسط الطريق لا شأن لها غير الإزعاج والمضايقة، وكان القيصر قد مر بها كثيرا، فأزعجته في النهاية. كانت و أيم الحق جبلا يشوه منظر الطريق فقال: (يجب إن تزول هذه الصخرة تفهمون ما تعني هذه الكلمة: يجب إن تزول. وتذكرون

القيصر الراحل. ما الحيلة مع هذه الصخرة! لقد دوخت رجال الدولة. كان هناك المجلس البلدي و كبير لا أدري على الضبط من يكون، ولكنه من ارفع الناس مقاما في ذلك الحين، أوكل إليه أمر الصخرة. وعرف إن تكاليف رفعها تبلغ خمسة عشر ألف روبل من الفضة لا تنقص روبلا واحدا. (كانت أوراق النقد قد بدلت في عهد القيصر الراحل).

أراد الانكليز في البدء أن يقيموا سكة حديدية توضع عليها الصخرة ثم تجر بقوة البخار. ولكن كم يكلف هذا؟ لم تكن الخطوط الحديدية موفورة في ذلك العهد. لم يكن يعمل غير خط تسارسكو باسياو.

– الم يكن بوسعهم نشرها؟ وبدأت أقطب حاجبي. واستبد بي شعور من الغيظ والمهانة أمام فيرسلوف. ولكنه كان يستمع بلذة ظاهرة. وأدركت انه مسرور لوجود صاحب البيت، لأنه مستح أمامي هو أيضا. كان هذا واضحا ومؤثرا من قبله.

– نشرها؟ بالفعل خطرت هذه الفكرة لونتفران في ذلك الحين. تعرفون بالطبع الرجل الذي بني كنيسة القديس اسحق. كإن يقول بإمكان نشرها ثم نقلها. نعم ولكن بأي ثمن!.

– لم يكن هذا مكلفا جدا. مجرد نشرها ثم نقلها.

– لا. اسمع. كان يجب وضع آلة بخارية، ولكن أين تنقل الصخرة؟ جبل بهذا الحجم! كانوا يقدرون تكاليفها بما لا يقل عن عشرة آلاف أو اثني عشر ألف روبل.

– اسمع، بيير لينوفتش، هذه سخافات. ولم يقع شيء منها على هذا الشكل.

ورماني فيرسيلوف في تلك البرهة، بنظرة لا تكاد تلحظ تينت فيها عطفا رقيقا نحو صاحب البيت، بعض التأسي له والرثاء لحاله.

– هاك. هاك إذن. قالها بيير فرحا. ولم يكن قد لحظ شيئا. وكان ككل القصاصين يخشى أن يثير الشكوك ويقاطع بالأسئلة: عندها، جاءهم في روسي، روسي حقيقي من أبناء الشعب، بذقن صغيرة وسترة تنزل حتى القدمين. وكانت الخمرة قد لعبت برأسه، لا لم يكن سكرانا. جاء ساعة الاجتماع بين الانكليز و مونتفر إن. ووصل ذلك الكبير في عربته فأصغي إليهم برهة، ثم انفجر ثائرا: "كيف تتناقشون كل هذا الوقت ولا تتوصلون إلى شيء".

ولحظ الفتى الروسي واقفا عن بعد يتطلع ويبتسم بتكلف. لا، لم يكن تكلفا..

واقترح فيرسيلوف هذا التعبير: (بتهكم).

– بتهكم خفيف، يعني بشيء من التهكم ،هذه الابتسامة الروسية الطيبة

وينتهره الكبير في ثورته: ايه، أنت هناك صاحب اللحية. ماذا تنتظر؟ من أنت ؟

– أتطلع إلى الصخرة يا صاحب الجلالة.

هكذا على الضبط، صاحب الجلالة. قد يكون الأمير سوفوروف

الايطالي، سليل الجنرال... ولكن لا لم يكن سوفوروف. وعبثا لقبه بصاحب الجلالة، لم يكن غير مواطن روسي ذي قلب كبير، نموذج للروسي الحقيقي. وحزر إذن كل شي..

– هيا. إذن هو أنت الذي يزيل الصخرة. لماذا تضحك ؟

– من اجل الانكليز يا صاحب الجلالة. أنهم يطلبون غالبا على التأكيد، لان الحزينة الروسية عامرة... وليس لديهم ما يأكلون.. أعطوني مئة روبل يا صاحب الجلالة وتزول الصخرة، مساء الغد.

بوسعكم أن تتصوروا هذا المشهد: الانكليز، وهم بالطبع يريدون التهامه على البارد، ومونتفران غارقا في الضحك. ولكن الأمير وحده، هذا القلب الروسي الطيب قال: أعطوه مئة روبل ؟

– إذن. ستنقل الصخرة ؟

– مساء الغد يا صاحب الجلالة.

– و كيف تفعل ذلك ؟

– هذا – وليكن دون إزعاج صاحب الجلالة هذا سرنا، قال هذا، كما تعرفون، بلغة روسية طيبة، وقد سر الأمير وقال: أعطوه كل ما يطلب.

– وماذا تظنون؟ فعل ذلك ما قال؟ وقال فيرسيلوف مبتسما: "لا أدري"،. و كنت أنا متجها...

– نعم، فعله.

وصرخ فيرسيلوف بشعور الظافر: كيف؟ و كأنه هو الذي رفع الصخرة.

– استأجر بعض العمالة الموجيك، بفئوسهم، بعض الرجال الروس.. فحفروا هوة حول الصخرة. ظلوا يحفرون طوال الليل وكانت حفرة هائلة، تماما بحجم الصخرة، أو تزيدها مقدار أصبع. وعندما انتهى كل شيء، أمر أن يلغم تحت الصخرة. لم يبق لها بالطبع أرض ترتكز عليها. وعندما بدأت تهتز دفعوها بقوة السواعد، على طريقة الموجيك.. وبوف! هاك الصخرة في الحفرة. ثم هالوا فوقها التراب وساووه بالمدحلة. وزالت الصخرة. كان هذا واضحا. قال غيرسيالوف: أترون هذا؟

وتجمع رهط من أبناء الشعب جاءوا من كل صوب. أما الانكليز، وكانوا قد توقعوا كل هذا، فقد سعروا كمدا وغضبا. وجاء مونتفران: هذا عمل على طريقة الموجيك، انه بسيط جدا، ولكن كل شيء هنا، انه بسيط كصباح الخير، ولم تفكروا به أيها المجاذيب! و أزيدكم أن الرئيس، الشخصية الكبيرة، أمسك به وعانقه: ولكن من أي بلد أنت؟

من مقاطعة لاروسلاف، يا صاحب الجلالة. ومهنتنا الخياطة. وفي الصيف نؤم العاصمة لبيع الفواكه.

ووصل النبأ إلى السلطات فأمرت أن يعلق وسام في عنقه. وكان يتنزه و الوسام في عنقه، ثم يذهب ليشرب خمرا، تعرفون هذا فنحن الروس لا نستطيع أن نمسك عن الخمر، ولذلك يأكلنا الأجانب حتى يومنا هذا. أليس كذلك؟

وقال فيرسيوف: أكيد، هي العقلية الروسية.. وهنا نودي القصاص،

لحسن حظه، من قبل امرأته المريضة فذهب مسرعا. وإلا لم يكن باستطاعتي أن اضبط نفسي. وكان فيرسيلوف يضحك.

– ولكن، يا عزيزي، لقد روح عني مدة طويلة قبل حضورك. هذه الصخرة!.. إنها بين هذا النوع من القصص أحط ما لدينا من قصص وطنية. ولكن كيف السبيل إلى مقاطعته ؟ لقد رأيت هذا جيدا، كاد يغمى عليه من الفرح. والحقيقة، ما تزال الصخرة مكانها كما اعتقد، لا في الحفرة.

وصرخت: يا الهي، صحيح ؟ و كيف تجاسر؟.

ماذا تقول ؟ ولكني أراك مستاء حقا. لقد سمعت في طفولتي قصة صخرة من هذا النوع. ولكنها غير هذه على التأكيد. "ووصل الخبر إلى السلطات، أن روحه لتبتهج فرحا عندما يذكر هذا: "وصل الخبر إلى السلطات". إن هذه القصص لضرورية في مثل هذه البيئات التي تستحق الإشفاق و الرثاء. ولهم منها كميات لا تحصي. وهذا على التحقيق لعدم الاعتدال في أمزجتهم، إنهم لم يتعلموا شيئا ولا يعرفون شيئا على الضبط. ففيما عدا لعب الورق و عملهم اليومي يهفو بهم الشوق إن يتحدثوا عن شيء، شيء إنساني، شعري.. بالمناسبة من يكون بيير ليتوفتش ؟

– رجل تعس من أفقر الناس.

– أترى إذن. انه قد لا يلعب الورق. وأعيد القول فهو حكاية هذه السخافات، يرضي في نفسه نزعة حب القريب، وقد أرضي شعوره الوطني أيضا.

عندهم مثلا هذه القصة عن زافيالوف الذي عرض عليه الانكليز مليون روبل، شريطة ألا يضع على بضائعه ماركة مسجلة.

– آه يا إلهي أعرف هذه القصة.

– ومن لا يعرفها. وهو عندما يقصها يعرف انك سمعتها حتما ولكنه يقصها مع ذلك وهو يتصور بمحض إرادته انك لا تعرفها. ويبدو إن قصة رؤيا ملك السويد قد ذهبت جدتها، ولكنهم كانوا يرددونها في عهد فتوتي بشغف وهمسات غامضة، ومثلها قصة الرجل الذي جثا أمام الشيوخ في مجلس السينا، وهم يعبدون القصص التي تدور حوادثها في البلاط، كقصص الوزير تشرنشيف الذي كان في السبعين واستطاع أن يغير هيئته تماما، حتى لم يكن يعطيه احد أكثر من ثلاثين، وكان القيصر المرحوم لا يصدق عينيه وهو يتطلع إلى صورته في المجلات..

– وهذه أعرفها أيضا. ا

– إن كل هذه القصص غاية في سوء الذوق. وهي منتشرة أكثر مما نظن. إن الرغبة في الكذب لجلب المسيرة إلى الناس نجدها في أرقى المجتمعات. فنحن نشكو جميعا عدم الاعتدال في قلوبنا، ولكن قصصنا نحن تنتمي إلى فئة ثانية، يتحدثون عندنا عن أميركا مثلا. هذا مخيف.

ويتحدثون عن رجال الدولة، وأنا اعترف بانتمائي إلى هذه الفئة. وقد شقيت بذلك طوال عمري.

– لقد قصصت حكاية تشرنشيف مرات، أنا أيضا.

– أنت أيضا ؟

– يوجد معنا هنا مستأجر آخر. موظف مجدور الوجه متقدم في السن. ولكنه واقعي بشكل غريب، فلا يكاد بيير ليوفتش يفتح فاه، حتى يأخذ مقاطعته ومعارضته، مما اضطر المسكين أن يتزلفه ويطري خصاله، ويجهد إلى مرضاته دائما، لغاية واحدة هي إن يتكرم بالإصغاء إليه.

– هذا نوع آخر من سوء الذوق. وهو أشد من ذاك بشاعة. في الأول شيء من الحماس والشعر: "دعني أثرثر، وسترى كم هو لذيذ" أما الثاني فسويداء و نثر: "دعني من ترهاتك. أين جرى هذا ؟ متى؟ في أي سنة؟، ولكن هؤلاء بلا قلب يا عزيزي. اسمح للناس إن يكذبوا قليلا، فهذا بريء. بل دعهم يكذبون كثيرا عند الحاجة، فانك تقيم بذلك الدليل على رقتك وسماحة خلفك. و من ثم هم يسمحون – لك بان تكذب أيضا.

آه. ولكني مستعجل.. وأضاف فيرسيلوف وهو ينهض عن. كرسيه: "أن مكان سكناك حسن. وسأعلم صوفيا اندريفنا و أختك بخبر زيارتي، وان صحتك جيدة. إلى الملتقى يا عزيزي.

كيف؟ هذا كل شيء ؟ لم يكن بي إلى هذا ثمة حاجة. كنت انتظر شيئا آخر (المهم)، رغم عالمي أن الحوادث لا يمكن إن تجري على غير هذا المنوال.

وسرت معه حتى السلم وبيدي شمعة. وتهيأ صاحب البيت للخروج معنا، ولكني أمسكت به من ذراعه ودفعته بشدة دون إن يلحظ فيرسياوف، فتطلع إلي بدهشة وتوارى لتوه.

– هذا السلم اللعين..

قالها فير سيلوف وهو يجر كلماته جرا، خشية أن أقول شيئا أنا أيضا.

– لم أعد آلف هذه السلالم. وأنت في الطابق الثاني. هيا، إني أتبين طريقي.. لا تقلق يا عزيزي. قد يصيبك برد..

ولكني لم اتركه. ونزلنا معا حتى الطابق الأول.

– كنت انتظرك طوال هذه الأيام الثلاثة. وخرجت مني هذه الكلمات بالرغم عني. وكنت أتنفس بصعوبة.

– أشكرك يا عزيزي

– كنت أعلم أنك ستجيء..

– وأنا كنت أعلم أنك تعرف ذلك. شكرا يا عزيزي ثم لاذ بالصمت. و كنا أمام الباب وأنا أسير وراءه. وفتح الباب، وكان الظلام دامسا. واندفع الهواء فجأة فأطفأ الشمعة. وأمسكت به من ذراعه فارتعش ولكنه لم ينبس بكلمة. وارتمت على يده أقبلها بشوق ونهم مرات لا تحصى.

– يا ولدي العزيز. ولكن لم تحبني كل هذا الحب ؟

وكان صوته يختلج بنبرات جديدة حتى ليخال صوت رجل آخر.

وأردت الكلام إلا إني لم استطع وصعدت السلم راكضا. وظل هو ينتظر مكانه. ولم أسمع صوت الباب الخارجي حين فتح، ثم أغلق بشدة، إلا بعد أن وصلت إلى الطابق الثاني، وتجنبت صاحب البيت الذي وقف يعترض سبيلي، و دلفت إلى غرفتي فوضعت المزلاج وارتميت على سريري، و واريت وجهي في الوسادة، دون أن أشعل الشمعة. ثم بكيت بكيت، وكانت أول مرة ابكي فيها بعد حادث توشار! كانت عبراتي تنهمر بدرجة من الشدة. وكنت سعيدا! كيف أصف هذا؟

* * *

ولم نشر بعدها إلى هذا المشهد أبدا. والتقينا بعد يومين و كأن شيئا لم يقع. بل كنت خشنا معهر وبدا لي هو على شيء من النشاف، ولم نتحدث خلال شهرين في غير المواضيع المجردة، أكثرها إنسانية وأهمها بلا شك، ولكن أبعدها عن (المهم).

قال لي بحزن مرة: كثيرا ما قلت لصوفيا اندريفنا في أوائل عهد صلتنا: إني أشقيك يا حبيبتي. وسأشقيك دائما. ولست آسف على هذا طالما أنت ماثلة أمام عيني. أما إذا فارقت الحياة فسأقتل نفسي تكفيرا عن جريمتي. واذكر انه كان معي على غاية من الصراحة ذلك المساء.

وكنت أرهقه بأسئلتي. اندفع إليه بنهم الجائع على قطعة من الخبز، وكان يجنبني دائما بطيبة نفس. وكانت هذه الأسئلة قد شغلتني طوال

عمري، حتى في موسكو وانأ فتي. وكنت أرجى، الجواب علها إلى اجتماعنا في بطرسبورج. وقد صارحته بذلك فلم يسخر بي بل صافح يد بحرارة.

لم استطع أن أظفر منه شيء في السياسة العامة والمشاكل الاجتماعية. وكانت مع ذلك أكثر القضايا التي ترهقني وتشغل ذهني. كيف تنتهي الدول الحديثة والعالم ؟ كيف يستتب السلم الاجتماعي؟

وأعار كل هذا أذنا صماء مدة طويلة، ولكني حظيت منه أخيرا بهذه الكلمات.

– أعتقد أن كل هذا سيتم بشكل عادي تماما. فان الدول كلما (رغم انتظام ميزانياتها) ستجد نفسها بوما مطعونة بحرابها فتمتنع عن الدفع حتى تتجدد، بعد انهيار عالمي، وستجد العناصر المحافظة في العالم لتحول دون ذلك، إنها صاحبة الدين والأسهم ولا تود الاعتراف الهزيمة. سيحصل بطبيعة الحال نوع من التصفية. ثم أن كل الذين لم تكن لديهم أسهم ولا يملكون شيئا، أعني كل الشحاذين سيرفضون بالطبع قبول هذه التصفية فتكون الحرب. وبعد سبع وسبعين معركة وهزيمة، يفنى الشحاذون أصحاب الأسهم فيستولون على أسهمهم ويحتلون مكانهم، كأصحاب أسهم أيضا، مفهوم. قد يقولون شيئا جديدا وقد لا يقولون. ويغلب على الظن أن يفلسوا هم أيضا. و من ثم لا أستطيع يا صديقي أن أقرأ أبعد من هذا في سجل الأقدار التي سوف تبدل وجه العالم. ولكن اقرأ رؤيا القديس يوحنا..

– أتكون الأشياء مادية إلى هذا الحد؟ وهل ينتهي العالم بالمال وحده؟

– آه. إني لم أتناول على التأكيد سوى زاوية واحدة من اللوحة ولكنها تتصل بالمجموع بعرى وثيقة.

– إذن ما العمل ؟

– آه، يا إلهي! لا تستعجل الأمور كثيرا. ليس هذا بقريب الوقوع. والأفضل بصورة عامة أن لا تفعل شيئا، فتكون مرتاح الضمير على الأقل.

– دعك من هذا إذن، ولنتحدث بجد. أريد أن أعرف ماذا يترتب على عمله. وكيف يجب إن أعيش.

– ما يجب عليك عمله يا عزيزي، كن شريفا. لا تكذب أبدا. ولا تشته بيت قريبك. وباختصار اقرأ الوصايا العشر. فكل هذا مسطور فيها إلى الأزل.

– كفى كفى. كل هذا قديم. و هي مجرد كلمات بينا يجب أن يكون هنالك عمل.

– إن كنت نهبه لمثل هذا المال العظيم فاسمع إذن إن تحب أحدا أو تكلف بشي.

– انك تضحك دائما. ثم ماذا أفعل وحدي بوصايا العشر ؟ تضعها موضع التنفيذ رغم أسئلتك وشكوكك و تصبح رجلا عظيما

– يجهله الجميع.

– ليس من خبئ لا ينكشف.

– انك تهزل دائما.

– ولكن إن كنت تهتم بكل شيء إلى هذا الحد فالأفضل أن تتخصص عاجلا. كن محاما أو مهندسا بناء تجد لنفسك شاغلا جديا فتهدأ وتنسي هذه الصبيانيات. و لذت بالصمت. وهل كان بوسعي أن أظفر منه بأكثر من هذا؟ ومع ذلك فقد كانت أجدني بعد كل من هذه الأحاديث اشد اضطرابا مني قبله. و كنت أرى بوضوح أنه يحتفظ بنوع من السر. وكان هذا ما يزيدني تعلقا به.

وقاطعته مرة: اسمع، كثيرا ما اشتبهت بأنك تقول هذا بدافع من الحقد والألم الدفين بينما أنت متعصب في أعماق نفسك لفكرة سامية يخجلك التصريح بها.

– أشكرك يا عزيزي.

– اسمع. اعرف انه ليس أنبل ولا أروع من أن نكون أداة نافعة في هذا العالم. قل لي كيف أ كون عضوا نافعا في الوقت المناسب. اعرف انك لن تقطع بحل. ولكنني بحاجة إلى رأيك.قل لي، وأنا أعاهدك بان افعل ما تقول، بماذا تتجلى هذه الحقيقة الكبرى؟

– إن تحول الحجارة إلى أرغفة. هذه هي الحقيقة الكبرى.

– أهي الحقيقة الكبرى؟ كلا. انك لتعين في وايم الحق، طريقا كاملا أتبعه. ولكن قل لي أهي الحقيقة الكبرى ؟

– إنها كبيرة يا صديقي. ولكنها ليست بالحقيقة الكبرى... هي كبيرة فقط في اللحظة الحاضرة والإنسان ينسى سريعا إذا شبع. وهو على العكس يقول لتوه: " حسن. ها قد شبعت. والآن ماذا أعمل ؟" أن القضية على هذا تبقى مفتوحة أبديا.

– لقد تحدثت عن الآراء الجنفوازية، لم أفهم ما تكون هذه الآراء.

– الآراء. الجنفوازية هي الفضيلة بدون المسيح. أنها آراء يومنا الحاضر، وعلى الأصح، آراء المدنية الحديثة بأسرها. وبكلمة هي إحدى هذه القصص المملة بدايتها. وبجدر بنا أن نمر دونها.

وقال لي فجأة بشيء من العاطفة والإصرار الخاص وقد تغيرت نبرات صوته: لست أريد يا عزيزي أن أغريك ببعض الفضائل البورجوازية مقابل مثلك العليا. لا أقول لك أن السعادة أفضل من البطولة، فالبطولة أسمي من أي سعادة. ومجرد الاستعداد للبطولة يشكل السعادة. هذا شيء مقرر بيننا إذن. وإذا كان لي ثمة احترام لشخصك فلأنك استطعت في عهدنا المهترئ. هذا، أن تخلق لذاتك فكرة. ولكن يستحيل عليك ألا تتوخى الاعتدال طالما أنت تصبو إلى إن تعيش حياة مجيدة صاخبة، وتود أن تضرم النار في ما لا أدري ماذا، وتقطع اربا لا أدري أي شيء آخر. وأن ترتفع فوق روسيا كلها كالشهاب المنير، وتترك العالم كله في غمرة من الذعر والإعجاب والذهول، ثم تتوارى بعد ذاك. يوجد على التأكيد شيء من هذا في قلبك. ولذا أرى أن أحذرك، لأني أحس نحوك بشعور من العطف والمحبة الخالصة.

من هذا أيضا ماذا استطيع أن استخلص؟ لم يكن هذا غير اهتمام بي وقلق على مصيري، انه الوالد بعواطفه التقليدية.

كنت كثيرا ما أسأله عن الدين. ولكن الضباب هنا كان أكثر ما يكون كثافة. فإذا سألته ماذا أفعل في هذه الحالة. أجابني على أسخف شكل، كما يجيبون صبيا صغيرا:" يجب أن تؤمن بالله يا عزيزي".

وصحت مرة في حدة ثورتي: "ولكن إذا لم أؤمن بكل هذا؟

– في هذه الحالة تفعل حسنا ألا نؤمن..

– كيف ؟ افعل حسنا ؟

– إنها علامة ممتازة. بل هي أكثر العلامات دلالة على الأمن والطمأنينة. فان ملحدينا الروس، عندما يكونون ملحدين حقا لأفضل الناس جميعا، مهما ضؤلت عندهم مواهب الفكر. إنهم مستعدون دائما أن يداعبوا الخالق لأنهم طيبو القلب وهم طيبو القلب لأنهم آمنون. مطمأنون لإلحادهم. فملحدونا رجال محترمون واثقون من أنفسهم. إنهم، كما يجوز لنا أن نقول، عماد الوطن.

بالطبع كان هذا شيئا. ولكنه لم يكن كل ما أريد. مرة. واحدة، أبدى رأيه بشكل غريب، خرجت منه على أكثر من الاضطراب و العجب، على التخصيص بسبب هذه الكتلكات و السلاسل التي سمعت بها.

قال لي يوما، بعد حديث طويل: و يستحيل علينا أن نحب الناس

كما هم يا صديقى. ومع ذلك فهذا واجب. ولذا يجب إن تكبت عواطفك و تفعل معهم الخير وأنت تسد انفك وتغمض عينيك (والشرط الثاني ضرورة لا محمص عنها).

تحمل ما يلقونك به من شر دون ما حقد إن استطعت، واذكر.انك إنسان مثلهم. يحق لك بالطبع أن تكون قاسيا معهم إن كان حظك من الذكاء يتجاوز، ولو قليلا، حد المتوسط. فالناس لئام بطبعهم، و اغلب ما يكون حبهم بدافع الخوف، فلا تستسلم لهذا الحب ولا تنفك عن احتقارهم، تعلم أن تحتقرهم، حتى عندما يكونون طيبين. فهم حينذاك، أكثر ما يكونون نتنا وفسادا. آه يا عزيزي إني أتكلم هكذا لأني أعرف نفسي حق المعرفة، احتقر. احتقر السافل و النبيل معا فيهما سواء إن تحب قريبك ولا تحتقره! هذا مستحيل. و عندي أن الإنسان خلق، جسميا، غير قادر على حب قريبه. يوجد هنا خطأ في اللغة منذ البدء، فحب الإنسانية يجب أن تفهم منه الإنسانية التي تخلقها أنت في ذاتك، إذ هي غير موجودة في ذاتها.

اعترف يا صاحبي إن هذا سخيف بعض الشيء. ولكنها ليست خطيئتي فهم لم يستشير و في يوم بدء الخليقة.

– كيف يمكنهم بعد هذا أن يسموك مسيحيا راهبا يحمل سلاسله، وواعظا مبشرا. أني لا أفهم !

– ومن يدعونني هكذا؟

وحكيت له ما سمعت فأصغى إلى بانتباه شديد ولكنه أهل الحديث.

الفصل الثاني

رأيته هذا اليوم، الخامس عشر من تشرين الثاني، عند الأمير سيروجيا، فوجدته يتحدث إليه حديثا ملتهبا وعلى وجهه علائم الاضطراب والأمير يصغي إليه وهو يسير في الغرفة جيئة وذهابا. كان الأمير رجلا انطباعيا حتى السذاجة، مما كان يجدر بي إن انظر إليه من عل أحيانا. أما فيرسيلوف فكانت له موهبة خاصة لإزعاجه، متى أراد. ولكن نوعا من الخبث المقرر، كما أعيد القول، ظهر عند الأمير في الأيام الأخيرة. ولكنه مدلي يده بلطف. وهز فيرسيلوف رأسه دون أن يقطع حديثه. وجلست على الديوان.

كانا يتحدثان عن الأرستقراطية وفكرة الشرف. وأشير إلى إن هذا الموضوع كان يلح على ذهن الكونت ويرهقه رغم مظاهره التقدمية. ويذهب بي الظن إلى أن الكثير من النواحي السيئة في حياته جاءت من هنا: انتفاحه لقب أمير و شقوته بالحرمان من أسباب الثراء. وقضى العمر كله يبدد المال بدافع من الكبر والعزة المزعومة فغرق في هرة من الديون. و كان فيرسيلوف قد لمح له مرات في أحاديثه بأن فكرة الشرف لا تتجلى في مثل هذا. و كان يجهد ليوحي إليه بمفهوم اسمي. ولكن الأمير شعر أخيرا بما يجرح كرامته في هذه الدروس تعطى له بهذا الشكل.

وظهر لي بجلاء أن مشهدا مماثلا جرى بينها هذا الصباح ولم اشهد بدايته..

– إن كلمة (شرف) تعني (واجب) فعندما تسود في مجتمع ما طبقة ذات امتياز، تضحي البلاد ذات منعة وقوة. فان للطبقة السائدة مفهوما للشرف، أو بالاحرى ديانة خاصة للشرف، قد تكون خاطئة، ولكنها بمثابة ترابة تدعم بنيان الأمة. أن هذا لجزيل النفع أخلاقيا، وعلى أكثر من الفائدة من الناحية السياسية. ولكن فئة العبيد، اقصد كل الذين لا ينتمون إلى تلك الطبقة، تتراخي في هذه الحلة، و(تتعجن). وقد منحوهم المساواة في الحقوق كي لا يصيبهم هذا التعجن. وهذا ما فعلوه عندنا. وهو شيء حسن جدا. ولكن التجارب التي تمت حتى الآن في كل أنحاء أوروبا تبين لنا أن المساواة في الحقوق يتبعها تدن في عاطفة الشرف، وبالتالي الشعور بالواجب. وهكذا تحل محمية الذات مكان الفكرة القديمة التي تدعم كيان الأمة وتشد من بنيانها. وينحل كل شيء في حرية الأفراد. وفي النهاية يفقد الرجال المحررون، وقد ظلوا بلا فكرة تشد من بنيانهم كل رابطة عليا، حتى يفضي بهم ذلك إلى إهمال الدفاع عن حرياتهم.

ولكن الأرستقراطية الروسية لم تكن لتشبه يوما مثلتها في الغرب. أن طبقة الأشراف عندنا لتستطيع، حتى بعد أن فقدت امتيازاتها، أن تظل إلى يومنا هذا، نظاما عاليا قيما على الشرف والنور و الأفكار السامية، أن استطاعت بصورة خاصة، أن تنفك عن كونها طبقة مغلقة، مما تسبب في ذاته موت الفكرة.

إن ابواب الأرستقراطية تكاد تكون مفتوحة عندنا منذ زمن طويل. وقد حان لها اليوم أن تفتح على مصراعيها. فلتكن كل مأثرة. في ميدان

الشهامة والعلم والبطولة جوازا يخول صاحبه حق الانتساب إلى هذا النظام الرفيع. وهكذا تحول الطبقة من تلقاء ذاتها إلى نخبة تضم الصفوة المختارة بالمعنى الحرفي والحقيقي وليس بالمعنى القديم كطبقة ذات امتياز. وفي هذا الشكل الجديد، أو المتجدد على. الأصح، تستطيع هذه الطبقة أن تقيم لها كيانا ثابتا.

وأبان الأمير نواجذه.

– وماذا يبقى من الأرستقراطية في هذه الحالة ؟ أن ما تقترحه لنوع من محافل الماسونية. و ليس من الأرستقراطية في شيء.

وأعيد القول: إن الأمير كان مغلق الفكر بشكل رهيب.. وتحر كت على ديواني بدافع من الغيظ والامتعاض رغم إني لم أكن مؤيدا لآراء فير سياوف كل التأييد.

وأدرك فيرسم لوف ثورة الأمير فأجابه:

– لا ادري بأي معني تتحدث عن الماسونية. ولكن إذا رفض أمير روسي مثل هذه الفكرة فمعناه إن وقتها لم يحن بعد. إن فكرة الشرف والثقافة كقاعدة ساوك لمن يريد الانتساب إلى طبقة غير مغلقة ودائمة التجدد، هي بالطبع فكرة مثالية قوامها الخيال. ولكن لم تكون مستحيلة؟ يكفي أن تكون حية في بعض الروس حتى يكتب لها البقاء. إنها تبرق سناء، كالنقطة المنيرة في الظلات المدلهمة.

– انك تحب استمال هذه الكلمات: فكرة سامية، فكرة أميرة وفكرة تدعم بنيان الأمة، وغيرها، أرد إن اعرف ماذا تعني بقولك، فكرة كبيرة ؟

– لا ادري ماذا أجيبك يا أميري العزيز – قالها فيرسيلوف بتهكم خفيف – والأصح، إني غير قادر على الجواب. اعرف فقط إن الفكرة الكبيرة كانت وما تزال ذلك الذي يولد فينا ما ادعوه بالحياة الحية، يعني غير حياة الكتب والتقليد. بل على العكس الحياة المرحة البهجة والتي لا يعتريها الملل. وهكذا فان الفكرة السامية التي تنبثق عن هذه الحياة ضرورية حتما رغم نفرة الجميع منها..

– ولا هذه النفرة ؟

– ذلك أن الحياة مع الأفكار شيء ممل. فالإنسان بدون أفكار يظل في بهجة دائمة.

وبلع الأمير (قرصه).

– وما هي في رأيك هذه الحياة الحية ؟ – وكانت ثورته بادية –.

– لست ادري أيها الأمير. اعرف فقط إنها يجب أن نكون بسيطة إلى درجة متناهية وعادية تماما. وهي تقفز أمام نواظرنا كل يوم وفي كل دقيقة. بسيطة إلى درجة لا نكاد نصدق معها بأنها على مثل هذه البساطة. ونحن نمر بها بالطبع، منذ آلاف السنين، دون إن نلحظها أو نعرفها..

– كل ما اردت قوله إن فكرتك عن الأرستقراطية هي في الوقت ذاته نفي لفكرة الأرستقراطية.

– يجب أن تعلم إذن، طالما أنت تريد، أن الأرستقراطية لم يكن لها ثمة وجود عندنا قط.

– ولكن كل هذا مظلم غامض. يجب أن توضح وتوسع. و تجعد جبين الأمير. والقي على الساعة نظرة عابرة فنهض فيرسيلوف و اخذ قبعته:.

إن أوسع ؟كلا. يجمل بي ألا أوسع. ثم إن في هذا نقطة ضعفي، إني أتكلم بلا إيضاح. وأنا، حين اعمد إلى إيضاح فكرة أؤمن بها، اكف عن الإيمان بها في الغالب، عند انتهاء عرضي لها. وأخشى إن يكون هذا شأني اليوم.

إلى الملتقى أيها الأمير العزيز. إني اترك لنفسي دائما مجال الثرثرة عندك. فذنبي لا يغتفر.

وخرج. فشيعه الأمير بأدب.

الأمير السعيد

- اوسكار وايلد-

في مكان مرتفع، يشرف على المدينة وفوق عمود رخامي طويل كان يقوم تمثال الأمير السعيد، كان محلي بأوراق رقيقة من الذهب أما عيناه فكانتا يافوتنين زرقاوين براقتين. كانت تلمع على فيضة سيفه ياقونة حمراء كبيرة

كان جميلا فإننا حقا قال احد أعضاء المجلس البلدي وكان يبغي أن يذاع عنه أنه يملك ذوقا فنيا: " أنه جميل جمال دوارة الريح"

وأضاف خشية أن يتهمه الناس بأنه غير عملي، ولكنه ليس مفيدا فائدتها"

وسألت أم أبنها الصغير، وكان يبكي ويطلب منها أن تعطيه القمر:"لماذا لا تكون كالأمير السعيد أنه لا يفكر بالبكاء من اجل أي شئ في العالم"

وتمتم رجل خاب ظنه في الحياة وهو يحدق في التمثال الجميل: " يسرني أن يكون في العالم شخص واحد سعيد حقا"

وقال الأطفال الذين نشأوا في مؤسسة الإحسان وهم يخرجون من الكاتدرائية في عبا آتهم القرمزية ومراييلهم البيضاء النظيفة: "انه ملاك، فقال لهم مدرس الحساب: كيف تعلمون ذلك و انتم لم تشاهدوا ملاكا في حياتك. فأجابه الأطفال: رآه! ولكننا شاهدناه في أحلامنا. فقطب المعلم، لأنه لم يكن يستحسن للأطفال أن يحلموا.

وكان يطير فرق المدينة، في إحدى الليالي، طائر من طيور السنونو. وكان رفاقه قد سبقوه إلى مصر، ولكنه أقام ولم يرحل. كان مدلها بحب قصبة هيفاء من أبدع القصبات جمالا. و كان قد لقيها في مطلع الربيع وهو آخذ سمته نحو النهر، في أثر فراشة صفراء كبيرة فيجذبه خصرها النحيل ووقف يحدثها.

قال لها السنونو كمن يريد إن يصل إلى غرضه رأسا: "هل احبك؟" فانحنت له القصبة انحناءة رفيقة. وطفق يطير محوما، ويلامس جناحاه الماء فيحدث موجات فضية. بهذا كان يتحبب إليها ويغازلها إلى إن تقضي الصف.

وردد أفراد السنونو :" ما أسخفه من حب! إنها لا تملك مالا كثيرا. ولها مع غيره علاقات.."

والحق أن النهر كان مليئا بالفراشات. فلما أقبل الخريف رحلت كاها.

وشعر بعد رحيلها بالوحدة. وبدا يمل حبيبته. قال لنفسه: إنها لا تتحدث إلي قط، وأخشى إن تكون ذات دلال و غنج، فهي تتمايل أبدا مع الريح. والحق أن القصبة كانت تبدي منتهى الطف وغاية الأدب كلما هبت الريح. وأضاف: وإنني اعترف بأنها مؤدبة ولكنني أعشق الأسفار، وينبغي لزوجتي أن تعشقها هي أيضا. وقال لها أخيرا: "هل ترحلين معي؟، ولكن القصبة هزت رأسها ولم تجب. كانت متعلقة بوطنها تعلقا شديدا. فصاح: (كنت تستهينان بي. إني مغادرك إلى مصر، وداعا.، وطار عنها بعيدا. وظل يطير طوال النهار، ووصل المدينة في المساء فقال "أين

تراني أحط. آمل أن تكون المدينة قد تهيأت لاستقبالي، ثم رأى التمثال فوق العمود فصاح: "سوف أحط هناك، انه مكان جميل يكثر فيه النسيم العليل." وهبط بين أقدام " الأمير السعيد". وقال لنفسه وهو ينظر حوله: أن لي مخدعا ذهبيا. وتهيأ للنوم، ولكنه لم يضع رأسه تحت جناحه حتى سقطت عليه قطرة كبيرة من الماء، فصاح: "ما أغرب هذا! ليس في السماء سحابة واحدة والنجوم لماعة براقة، ومع ذلك فالجو ممطر. إن الإقليم في شمال أوربا مخيف حقا. لقد الفت القصبة حب المطر. ولكن ذلك لم يكن غير أنانية منها."

ثم سقطت عليه قطرة أخرى، فقال: ما فائدة التمثال إن لم يحمي من المطر، ينبغي أن أبحث عن مدخنة، وعزم على مغادرة التمثال. ولكنه ما نشر جناحيه حتى سقطت عليه قطرة ثالثة. ونظر إلى أعلى فرأي.

آه: ماذا رأى ؟

كانت عينا الأمير السعيد طافحتان بالدموع تنهمر واحدة بعد أخرى على خديه الذهبيين. وكان وجهه يبدو في ضوء القمر، جميلا فاتنا فأخذت السنونو به رحمة وقال: (من أنت ؟).

– (أنا الأمير السعيد). فسأله: ولم بكاؤك إذن؟ لقد بللتني تماما.

فأجابه التمثال: وعندما كنت على قيد الحياة، وكان لي قلب. بشري، لم أكن أعرف الدموع. كنت أحيا في القصر (الخالي من الهموم) والذي لم يكن يسمح للإحزان بدخوله. كنت في النهار العب مع

صحبتي في الحديقة، فإذا جاء الليل قدت حلقات الرقص في القاعة الكبيرة. وكان يقوم حول الحديقة سور شائق العلو، ولكنني. لم أعن بالسؤال عما وراءه، فكل ما حولي كإن به بهيجا جميلا. وكانت حاشيتي تدعوني بالأمير السعيد. ولقد كنت سعيدا حقا، إن كإن السرور هو السعادة. هكذا حييت وهكذا قضيت. وقد أقاموني على هذا المكان المرتفع أرى كل دمامة مدينتي وكل شقائها. وبالرغم من إن قلبي قذ قد من الرصاص فلا يسعني إلا البكاء.

فقال السنونو في سره: (ماذا !.. أليس من الذهب الصلب إذن؟. كان مهذبا جدا فتحاشى أن يبدئ ملاحظته بصوت مرتفع.

واستطرد التمثال بصوت موسيقي حنون: و يوجد بعيدا عن هذا المكان في شارع متواضع، بدت حقير، إحدى نوافذه مفتوحة. استطيع أن أتبين خلالها امرأة جالسة على مائدة، وجهها رقيق متعب ولها يدان غليظتان حمراوان و خزتها الإبر. أنها تطرز أزاهير الحب على فستان من الدمقس لأحب الوصيفات إلى قلب الملكة وآثرهن عندها لترتديه في حفلة الرقص الملكية القادمة.. وعلى فراش، في إحدى زوايا الغرفة تمدد ابنها المريض. انه يشكو من الحمي ويطلب برتقالا وليس لدي أمه ما تعطيه غير ماء النهر ولذلك أراه يبكي. أيها السنونو أما السنونو الصغير! ألا نحمل إليها الباقونة من «قبض سيفي ؟ إن أقدامي مشدودة إلى هذه القاعدة فلا استطيع حراكا".

فقال السنونو: "إن أصدقائي ينتظرونني في مصر وهم يطيرون فوق النيل. يرتفعون ويهبطون ويناجون أزاهير اللوتس. ولن يلبثوا أن يذهبوا ليرقدوا في قبر الملك العظيم، هناك حيث سجي المك في تابوته المصبوغ، وقد دثر بالكتان الأصفر، وحنط بالتوابل، و أحاطت بعنقه سلسلة من الحجارة الكريمة الخضراء، مشوبة بالصفرة. ويداه أشبه بالأوراق الجافة.

فقال الأمير: (ألا تمكث معي ليلة واحدة أيها السنونو الصغير، وتكون لي رسولا؟ أن الصبي عطشان مجهد، وألام حزينة مهدمة يكاد يودي بها الهم).

فأجاب السنونو "ما احسبني أحب الصبيان. فقد كان على النهر في الصيف الفائت صبيان كانا يرمياني بالحجارة. ولكنها لم يصيباني طبعا، فنحن معاشر السنونو نطير سراعا فلا تدركنا الحجارة. أضف إلى ذلك إني من عائلة مشهورة بحيويتها. ولكن ذلك كان منها دليل طيش وعدم احترام".

وكان يبدو على الأمير السعيد من أمارات الحزن ما آلم السنونو فقال: "إن البرد قارس هنا، ولكني سأمكث معك ليلة واحدة وأكون رسولك".

فقال الأمير: "شكرا لك أيها السنونو الصغير".

والتقط السنونو الباقونة من سيف الأمير وطار بها فوق اسطحة المدينة. مر بالكاتدرائية حيث تقوم الملائكة المنحوتة من المرمر. مر بالقصر وسمع صوت الرقص. وطلعت فتاة حسناء مع حبيبها إلى الشرفة،

وسمعه يقول لها: ما أجمل الكواكب! وما أعجب سلطان الحب!

فقالت له: أرجو أن يكون ردائي معدا لحفلة الرقص الملكية. لقد أوصت أن تطرز علبه أزاهير الحب. والخياطات منهمكات في العمل.

طار فوق النهر ورأى المصابيح معلقة على سواري السفن. مر فوق حي البورصة ورأي اليهود الطاعنين في السن يتجر بعضهم مع بعض ويزنون النقود بموازن النحاس. وانتهى مطافه إلى البيت الحقير فرأي الصبي على فراشه يسعل محموما، وقد نامت الأم من فرط التعب. فدخل إلى البيت ووضع الياقوتة على المنضدة إلى جانب كشتان الأم. ثم هو مرفق حول الفراش، ورف بجناحيه مهوئا جبين الصبي. ولم يلبث أن سمعه يقول: "لشد ما ينعشني هذا الهواء البارد! لا بد إن تكون صحتي آخذة بالتحسن. ثم غرق في سبات عميق لذيذ.

وطار السنونو إلى الأمير السعيد واخبره بما فعل وقال: ويا للعجب إنني اشعر بالدفء رغم برودة الجو.)

فقال له الأمير و ذلك لأنك قمت بعمل طيب.

واخذ السنونو الصغير يفكر. ونام أخيرا، فقد كان التفكير تبعث الرقاد إلى جفنه دائما.

فلما طلع الصبح طار إلى النهر واستجم، فرآه أستاذ علم الطيور وهو يجتاز الجسر فقال: ما اغرب هذه الظاهرة! سنونو في الشتاء؟

وكتب إلى الجريدة المحلية رسالة طويلة. اقتبسها كثيرون لأنها تضمنت كلمات تعذر علهم فهمها.

وقال السنونو وقد صمم على السفر: (سأذهب هذا المساء إلى مصر وقام بزيارة جميع الآثار العامة. وقضى مدة طويلة فوق برج مصر. الكنيسة. و كان، حيثما انجه، بسمع الشحارير تتهامس في ما بينها: ما أعجب هذا الغريب، فيطرب لأقوالها طربا عظما.

وعندما طلع القمر طار إلى الأمير السعيد وصاح: "أعندك رسائل إلى مصر، إني مغادرك الآن".

فقال له الأمير: أيها السنونو الصغير، ألا تمكث معي ليلة أخرى ؟"

فأجابه السنونو: "إن أصدقائي ينتظرونني في مصر، وغدا يطيرون إلى الشلال الثاني. حيث يتمدد حصان النهر بين أوراق البردي، وعلى عرش عظم من الصوان يرقد الإله (أمون). انه يرقب النجوم طوال الليل، وعندما يتألق كر كب الصباح يرسل صيحة الفرح، ثم يلزم الصمت. وعند الظهيرة تنزل الأسود الصفر إلى حافة النهر لترتوي. إن لها عيونا كالزمارد الخضراء وزئيرها اقرى من هدير الشلال.

فقال له الأمير: أيها السنونو. أيها السنونو اللطيف. إنني المح في المدينة بعيدا عن هذا المكان فتى في غرفة حقيرة. انه منحن على مقعد مغطى بالورق. وفي إناء إلى جانبه باقة من أزهار البنفسج الذابلة. شعره رمادي جعد وشفتاه حمراوان كالرمان وله عينان واسعتان حالمتان. انه

يحاول إن يكتب تمثيلية لمدير المسرح ولكنه يحس بردا قارسا منعه من المغي في الكتابة، ليس في موقده نار، وقد أذواه الجوع.)

فقال له السنونو، وكان ذا قلب طيب حقا: "لا مكثت معك ليلة ثانية. أن أحمل إليه ياقوتة أخرى؟"

فقال الأمير: ولم يبق لدي الآن أية ياقوتة. ليس لي سوى عيني، إنها مصنوعتان من اليواقيت النادرة التي جيء بها من الهند قبل ألف سنة. خذ أحداهن واحملها إليه، فلسوف بلدها إلى الجوهري ويشتري حطبا وينجز مسرحيته."

فقال السنونو: وإني لا استطيع إن آتي هذا الأمر أيها الأمير، وطفق يبكي.

فقال له الأمير: " أصدع بما آمرك به أيها السنونو الصغير."

فانتزع السنونو عين الأمير وطار بها إلى حجرة الطالب. و كان يسهل الدخول إليها من ثقب في سقفها. كان رأس الفتي مدفونا في يديه فسلم يسمع رفيف الجناحين. وعندما رفع عينيه رأي الياقوتة فوق أزهار البنفسج الذابلة. فهتف: (يظهر إن لدي قد اخذوا يتذوقون كتاباتي. فلا بد أن تكون هذه الباقونة من بعض كبار المعجبين. إني استطيع الآن انجاز مسرحيتي. وبدا فرحا سعيدا.

وفي اليوم الثاني طار السنونو إلى الميناء وحط على سارية سفينة:

كبيرة و اخذ برفي المحاربين وهم يسحبون الصناديق من غير السفينة وكانوا كلما اخرجوا صندوقا صاحوا: (هيلا. هيلا هوب)، فصاح السنونو: "أنا ذاهب إلى مصر"، ولكن أحدا لم يكترث لتحدائه وعندما طلع القمر طار إلى الأمير السعيد وصاح: جنت أودعك

فقال له الأمير: (إلا تمكث معي ليلة ثالثة أيها السنونو)

فأجابه السنونو: "نحن في فصل الشتاء، ولن يلبث أن يداهمنا الثلج. أما مصر فشمسها دافئة على أشجار النخيل الحضر. وتماسيحها تمدد فوق الطين وسنانة كسلي، وتنظر فيما حولها. إن أصحابي يبنون الأعشاش في هياكل بعلبك ترقبهم الحمامات البيض و القرنفلية

اللون بسجع بعضها البعض. ينبغي إن أفارقك أيها الأمير العزيز.. ولكنني لن أنساك ما حيات. ولسوف آتيك معي في الربيع القادم مجوهرتين جميلتين عوضا عن اللتين فقدتها. سوف تكون الياقوتة الحمراء اشد حمرة من الورد. وتكون الباقونة الزرقاء بزرقة البحر الخضم.

فقال له الأمير السعيد: "إني أرى في الميدان الذي بلى هذا المكان بائعة ثقاب أفلتت من أيدها صناديق الثقاب فسقطت في الماء وتلفت كلها. ولسوف يضربها أبوها إن لم تحمل إليه نقودا في المساء، فهي تبكي وتنتحب. أنها بدون حذاء ولا جوارب وليس لرأسها غطاء. فاقتلع عيني الأخرى، واحملها إليها كي لا يضربها أبوها.

فقال السنونو: "سوف امكث إلى جوارك ليلة ثالثة، و لكنني لا

أقوى على اقتلاع عينك فاني أن فعلت، أصبحت اعمي كل العمى.."

فقال له الأمير: "أيها السنونو. أيها السنونو الصغير أصدع بما آمرك به."

فاقتلع السنونو عين الأمير الأخرى وهبط بها إلى الميدان ثم هوى إلى الفتاة الصغيرة ودسها في يدها فصاحت فرحة: "ما ألطف قطعة الزجاج هذه. وانطلقت إلى البيت تعدو باسمة. ثم عاد السنونو إلى الأمير وقال له: "انك أعمى الآن فلأمكثن إلى جوارك ،. لا أفارقك أبدا."

– فقال له الأمير المسكين: "لا أيها السنونو الصغير. ينبغي إن. ترحل إلى مصر."

فأجابه السنونو: "لا مكثت إلى جوارك أبدا. ثم قام على قدمي الأمير".

وجلس طوال اليوم الثاني على كتف الأمير يحدثه عما شاهده في الأراضي البعيدة. حدثه عن الأحناش الحمر التي تقف صفوفا طويلة على ضفاف النيل وتصيد بمناقيرها الأسماك الذهبية. حدثه عن أبي الهول الذي يضاهي العالم في القدم، و يعيش وحيدا في الصحراء، ويعرف كل شيء. حدثه عن التجار الذين يسيرون ببطء إلى جانب جمالهم يحملون في أيديهم سبحات مصنوعة من العنبر. حدثه عن ملك جبال القمر الذي يضاهي الأبنوس في السواد والذي يعيد بلورة سحرية عظيمة. حدثه عن الأفعى الخضراء الهائلة التي تبيت في إحدى النخلات ويغذيها عشرون كاهنا بكعكات من العسل. حدثه عن الأقزام الذين يجرون فوق بحيرة

كبيرة، على أوراق واسعة مسطحة، وهم في حرب دائمة مع الفراشات.

فقال الأمير: "يا عزيزي السنونو الصغير انك تقص علي أنباء عجيبة. ولكن آلام البشر لأعجب من كل شيء. فليس في العالم من لغز أعظم من البؤس. حلق فوق مدينتي أيها السنونو الصغير، وانبئني بما ترى."

فطار السنونو فوق المدينة العظيمة ورأي الأغنياء يطربون في قصورهم الجميلة، بينما يجلس الشحاذون على الأبواب. طار بين الدروب والمنعطفات فرأى وجوها شاحبة لأطفال جياع ينظرون بفتور إلى الشوارع السود.. وكان ينام تحت قنطرة الجسر صبيان صغيران ضم احدهما الآخر طلبا للدفيء. وقالا: "ما اشد جوعنا، فصاح بهما الحارس: "ينبغي إلا تناما هنا.. فانطلقا يهمان تحت المطر.

ثم طار إلى الأمير واخبره بما رأى. فقال الأمير: و أنتي مغطى بطبقة رقيقة من الذهب. ينبغي أن تقتلع هذا الذهب ورقة ورقة وتحمله إلى الفقراء. إن الأحياء يحسبون دائما أن الذهب يستطيع أن يجعلهم سعداء.

فأخذ السنونو يقتلع الذهب ورقة بعد أخرى ويحمله إلى الفقراء، إلى إن أصبح الأمير السعيد باهتا قاتما، وكانت وجوه الأطفال تكسى بحمرة الورد شيئا فشيئا، فيأخذون في الضحك واللعب في الشوارع ويصبحون فرحين: "أصبح لدينا خبز."

ثم جاء الثلج وتلاه الصقيع. وأخذت الشوارع تتلألأ فتبدو كأنها مرصوفة بالفضة: وتدلت حبال الجليد كالخناجر الزجاجية، من أفاريز

المنازل. وكان الناس ويسرون مدثرين بالفراء وبدأ الأولاد الصغار يلبسون قبعاتهم القرمزية ويتزحلقون على الجليد. وازداد شعور السنونو بالبرد شيئا فشيئا. ولكنه لم يرد فراق الأمير، كان يحبه حبا مفرطا. فأخذ يدفئ نفسه بتصفيق جناحيه، ويلتقط فتات الخبز من الفرن على غفلة من عيني الخباز.

ولكنه على آخر الأمر أنه لابد هالك. وكان قد بقي له من القوة والجلد ما يمكنه من الطيران إلى كتف الأمير مرة أخرى فتمتم في أذنه وداعا أيها الأمير العزيز. أتسمح لي بتقبيل يديك؟)

فقال له الأمير: " يسرني أنك ذاهب إلى مصر أخيرا أيها السنونو الصغير. لقد مكثت هنا مدة طويلة. ولكن ينبغي أن تقبلني من شفتي لأنني احبك."

فقال السنونو: "لست بذاهب إلى مصر أيها الأمير، ولكن إلى منزل الموت. إن الموت شقيق النوم أليس كذلك ؟"

وقبل الأمير السعيد في شفتيه، ثم سقط ميتا على قدميه.

وفي تلك اللحظة سمع صوت غريب داخل التمثال. كما لو أن شيئا قد تصدع. والحق أن قلب الرصاص كان قد صار قطعتين. لاشك إن البرد كان قاسيا فظيعا.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان محافظ المدينة يسير في الميدان إلى جانب التمثال ومعه أعضاء مجلس المدينة، فتطلع إلى التمثال وقال: "عجبا! ما أكثر ما يبدو الأمير السعيد رثا؟"

فصاح أعضاء المجلس: "حق أما اكثر ما يبدو رثا"، وكانوا يسلمون دائما ما يقوله المحافظ. وصعدوا لينظروا إليه.

قال المحافظ: لقد سقطت الياقوتة من سيفه وذهبت عيناه ولم يعد فيه شيء من الذهب. والحق، انه لا يفضل احد الشحاذين إلا قليلا.

فردد الأعضاء: (اجل! لا يفضل الشحاذين إلا قليلا. وأضاف المحافظ: "ها هنا عصفور يرقد ميتا على قدميه. ينبغي أن نصدر بلاغا تحظر فيه على الطيور أن تموت هنا. وسجل الكاتب هذا الاقتراح.

وهدموا بعد أيام تمثال الأمير. وقال أستاذ الفن في الجامعة ولم تعد له فائدة، لقد فقد جماله. ثم ذوبوا التمثال في تنور، وعقد المحافظ اجتماعا لأعضاء المجلس البلدي لمقرروا ما يعملون معدن التمثال، وقال: (ينبغي أن نصنع تمثالا آخر. ولسوف يكون تمثالي أنا. فقال كل من أعضاء المجلس: بل تمثالي أنا. واختصموا، وكانوا إلى آخر ما سمعت، ما يزالون يختصمون.

وقال رئيس عمال الصهر: وما أغرب هذا! أن القلب الرصاصي المكسور لن يذوب في الفرن. ينبغي أن نرمي به جانبا. فرموا به فوق كومة من التراب، حيث القي بالسنونو أيضا.

قال الرب لأحد ملائكته: "جئني باثمن شيئين في المدينة" فجاءه الملاك بالقلب الرصاصي والعصفور الميت.

قال الرب: "لقد أصبت في الاختبار. فلسوف يغرد هذا العصفور في جنتي إلى الأبد. وليسبحن لي الأمير السعيد في مدينتي الذهبية.

امرأة صياد

- سامي لاجرلوف -

على سفح رابية من الرمل الأبيض، في طرف قرية صغيرة للصيادين، كان يقوم كوخ صغير تقطنه امرأة عجوز. لم يكن حسن البناء أو نظيفا رحبا، ليأخذ منه إلى جانب البيوت الأخرى القائمة دول الساحة الكبيرة، حيث تنشر شباك الصيد السمراء لتجف في وهج الشمس.

و كان يبدو أن هذا الكوخ المتواضع قد نبت هناك بعيدا، استجابة لرغبة البيوت الأخرى التي شاءت أن تزيحه عنها تعففا و كبرا.

وقد رغبت الأرملة المسكينة التي وضعت مخطط بنائه وشيدته بنفسها، أن تكون جدرانه أو طى من جدران البيوت الأخرى وان يكون سقفه الخام المصنوع من القش اليابس أعلى من سقف أي بيت آخر. وكانت أرضه غائرة في التربة، ونافذته الوحيدة، ممتدة من الأرض إلى إفريز السقف. ولم يجد التنور ولا حظيرة الأرز متسعا. لها في حجرة الكوخ، فالحقا به بشكل بارز.

ولم يكن هذا الكوخ، كالبيوت الأخرى من حوله، حديقة. تعانق فيها أغصان اللفلاف شجيرات العليق. ولم يرافقه إلى تلة الرمل من كل هذا الخضار المبذول الذي يستنج بيوت القرية ،غير شجيرات ضئيلة من

القرطب. وكانت هذه الشجيرات جميلة في الصيف بأوراقها الريانة ذات الخضرة الفاقعة، إذ تتفتح أزهارها القرمزية بين الأغصان المعقوفة. ولكنها كانت تهمل في الخريف فتصلب أطرافها وتنضج بذورها فتبدر يابسة جافة. ويغطى أوراقها الممزقة وشاح باهت من نسيج العنكبوت، فيثير منظرها الكآبة والأسى..

ولم يستطع هذا الكوخ، في ما قدر له من أمد الحياة، أن يأوي أكثر من مالكين، على التتابع، إذ أن جدرانه الرقيقة لم تستطع إن تتحمل طويلا أثقال السقف، وكان يقطنه في الفترتين أرملتان بائستان. وقد كان يلذ الأرملة التي تسكنه الآن، أن تتطلع إلى شجيرات القرطب، لاسيما في الخريف، عندما تذبل وتجف أوراقها فتبدو متعلقة بالأحجار التي حولها، متمسكة بها. وكان يذكرها هذا المشهد بالأرملة التي بنت الكوخ وسبقتها في سكناه: كانت هي أيضا جافة، ذابلة، وقادرة على أن تتعلق و تتمسك: لقد استنفذت المسكينة جملة قواها في سبيل تنشئة الولد الذي ستدفعه إلى العالم.

وكانت مالكة الكوخ الجديد، وهي تستعرض في خاطرها هذه الصورة القائمة، تشعر بحاجة إلى البكاء والضحك معا.

ربما كانت الأمور قد جرت في غير هذا الاتجاه، لو لم يكن لتلك المرأة العجوز طبيعة شجرة القرطب. ولكن، من يدري في هذه الحالة، أن كان قد قدر لها أن تسير إلى أفضل..

وكانت كثيرا ما تفكر بالصدفة الغربية التي قذفت بها إلى هذا الشاطئ الجاف الواطي من منطقة (اسكانيا) إلى جانب هذا المضيق الصغير، وسط هذا الشعب الوادع البطيء الحركة.

كانت قد استقبلت الحياة في مرفأ نروجي صغير يقع تحت أقدام صخور حادة وعرة، تشرف على البحر الفسيح. ورغم أن والدها كان قد ترك عائلته في حالة من الفقر والضيق فقد تعودت أن ترى في ما حولها الحياة والحركة.. وكانت كثيرا ما تقص على نفسها قصة حياتها، كما يقرأ الناس كتابا صعبا ليصلوا إلى معرفة الفكرة التي أوحته..

هكذا بدأ مصيرها العجيب: كانت عائدة إلى المبيت في إحدى الأمسيات من منزل الخياطة التي تشتغل عندها، فهاجمها اثنان من البحارة. وأنقذها من براثنهما بحار ثالث عرض حياته للموت من اجلها. ثم أوصلها إلى البيت فدعته للدخول معها، وقدمته إلى أمها وشقيقاتها وحدثتهن بحماس عما فعله الشاب من أجلها. وقد خيل إليها أن حياتها أصبحت أكثر قيمة مذ تعرض شخص آخر للخطر في سبيل الدفاع عنها. واستقبلت العائلة النوتي الشاب استقبالا حارا وطلبت إليه إن يتردد عليها ما وسعه الأمر.

كان اسمه بيرج نيلسون. ويعمل بحارا على ظهر الباخرة (البيرتينا). وكان يأتي لزيارتهم يوميا عندما ترسو سفينته في الميناء. ولم يلبث أن كسب محبة العائلة الصديقة. ولكن لم يرد احد من أفراد هذه العائلة أن يصدق أن هذا الفتى الوسيم، الذي سحرهم بلباسه البحري النظيف

ويافته الناصعة البياض، كان بحارا بسيطا. كانت حركاته كما تشير إلى عادات رجل من طبقتهم، فتصوروه، دون أن يذكر لهم شيئا، ابن أرملة غنية اختار هذه المهنة عن هواية وشغف وارتبط

كنوتي بسيط ليعطي أمه الدليل على حبه الفطري لإعمال البحر. وأنها لابد أن تشتري له سفينة خاصة، عندما يجتاز مدة المران. وهكذا استقبلته هذه العائلة النرويجية، وكانت علاقتها بالعالم قد تقلصت بعض الشيء، بلا تحفظ أو ريبة.

وحدثهم بيرج عن بيته الجميل، ذي السقف العالي، بأسلوب أخاذ وقلب ينبض بالبشر والأمل. وصف لهم المدفأة الكبيرة في طرازها القديم، وبلور النوافذ المزخرفة. حدثهم عن الشوارع الهادئة الصامتة في مسقط رأسه، وعن البيوت الصغيرة المتشابهة. و كيف يشذ بيته عن بقية البيوت فيبدو بها رائعا. وكانت العائلة الساذجة تتصور من خلال حديثه، بيتا بورجوازيا من هذه البيوت القديمة العريقة تزين سقفه الرسوم، وبوحي بشعور المهابة والاحترام.

وقد أدركت الصبية بسرعة انه يحبها. وسرت الأم و الشقيقات فان السماء قد بعثت إليهم بهذا السويدي، ليبعد عنهم شبح الضيق والفقر.

لو كان والدها حيا، أو كان لها شقيق كبير، لاستعلما عن هذا الغريب. أما هي. فلم تفكر بالأمر جديا، ولم يرد قط على خاطر أمها وقد أدركت فيما بعد، كيف إنها وأمها وشقيقاتها قد دفعن به إلى الكذب وشجعنه على الاسترسال فيه.

لقد ترك لخيالهن في البدء، أن يعزو إليه ثروات ضخمة، وعندما عرف مبلغ سعادتهن في الطواف على أجنحة هذا الخيال، منعه خوفه من فقد الصبية، إن يرجع عن خداعه.

وعقدت خطوبتهما قبيل سفره. وتزوجا بعد رجوع السفينة. وقد شعرت استريد بشيء من الخيبة عندما عاد إليها كبحار بسيط. ولكنه ما يزال مرتبطا بعقد.. ولم يأتها بشيء من قبل أمه لان العجوز كانت تأمل لابنها غير هذه الزوجة.. فلا بد أن ننتظر حتى تقدم إليها وتكسب ودها.

ولقد كان بوسعها وبوسع أمها أن تتبينا فيه الفقر، رغم هذه الأكاذيب، لو فتحا أعينهما قليلا.

ورغبت الزوجة أن يكون سفرهما على ظهر السفينة فعرض عليها القبطان حجرته. وقابلت هذا العرض الكريم بفرح شديد. واعفي الزوج من القيام بأي عمل. كان يقضي معظم يومه مع استريد، على ظهر السفينة، وبذل لها كل ما استطاع خياله من سعادة، هذا النوع من السعادة التي تعود أن ينهل من معينها طوال عمره. و كان يبدو له كوخ أمه الحقير غارقا في الرمل، فلسعي به خياله حتى يرفع من سقفه قليلا، ويجور في مبناه. وتتخيل نفسها استريد وقد وصلا المرفأ المزين بالأعلام و الزهور. وتمر في عربة فخمة تحت قوس النصر فيرمها الرجال بالورود و نظرات الإعجاب، وتصفر وجوه النساء غيرة من العروس الجميلة. ثم يدخل بها الزوج إلى المقر الوالدي القديم حيث يطالعها خدم البيت

بثيابهم الرسمية وشعورهم البيضاء. وتتزين المائدة لهذه المناسبة السعيدة، بالأزهار والشموع والأواني الفضية القديمة.

عندما اكتشفت الحقيقة خيل إليها أن القبطان اشترك مع نيلسون في خداعها. ولكنها أدركت خطأ هذا الرأي. فقد اعتاد البحارة إن يتحدثوا عن نيلسون كأنه شخصية مرموقة. وكانت تسليتهم المفضلة حديث ثروته الضخمة وعائلته الكبيرة، وكانوا يعتقدون أن استريد أيضا تشاركهم هذا المزاح.

ولهذا فعندما رست الباخرة في اقرب ميناء إلى بيت بيرج كان بوسعها أن تتصور ذاتها بعد، زوجة رجل غني..

وحصل نيلسون على فرصة يوم وليلة ليوصل امرأته ويهيئ لها أسباب الحياة في مقرها الجديد. وعندما وصلوا إلى المرفأ الذي تصورته استريد حافلا بالمستقبلين والأعلام والزهور، لم تلق غير الفراغ والهدوء المعتاد. ولحظ نيلسون أن امرأته توزع في ما حولها نظرات حزينة خائبة. فقال لها: جئنا في ساعة مبكرة. وكان سفرنا قصيرا في هذا النوء الجميل. إنهم لم يرسلوا عربة للقائنا، وعلينا أن نسير مشيا على الأقدام ردحا طويلا، فالبيت يقع خارج المدينة.

فقالت له استريد: وما هم، بيرج. مضى علينا زمن طويل ولم نقم بحركة، فسيحسن إلينا المشي.

وبدأ سيرهما. وكان الطريق وعرا مجهدا لم تكن لتحمل السير فيه، حتى في أحلك أيامها، دون أن تضج بالشكوى والألم. وكانا يتقدمان في

شوارع عريضة مقفرة تتعرف عليها تبعا للوصف الذي أخذته عنها. وقد خيل إليها إنها تعرف إلى أصدقاء قدماء في الكنيسة الباهتة والبيوت المتجهمة، وكلها بذات القياس واللون.

ولكن أين الواجهة العالية المزخرفة والسلم الكبير بعواميده الرخامية؟

وارمأ بيرج برأسه كأنه حزر ما يجول في خاطرها وقال لها: انه بعيد بعد.

لشد ما كان بوسعه أن يكون رفيقا بما رحما لو بدد أوهامها مرة واحدة! لو صارحها بكل شيء! إذن لما شعرت نحوه بأي كره فقد كان حبها له عظيما. ولكنه كان يرى خوفها من الخديعة يزداد حينا بعد حين، ويستمر في خديعتها. هذا ما جرح قلبها وأشقاها، حتى لم تستطع طوال عمرها، أن تغتفره له، كل المغفرة.

عبثا حاولت أن تقنع نفسها، بأنه إنما يأخذها إلى هذه البقعة النائية كي تكون له بكليتها، ولا تستطيع التفكير بهجره. فان استرساله في خداعها قد ولد في قلبها كتلة هائلة من الجد لا يستطيع إن يذيبها أي حب.

واجتازا المدينة وسارا في السهل فرأت وديانا قائمة وحصونا منيعة يعود عهدها إلى الأزمنة الغابرة. رأت بيوتا قديمة باهتة ألون رمها بنظرات مستحية. وسار بيرج إلى اليسار في طريق جانبية، وقال لها عندما أظهرت دهشتها: إننا نقتصر بذلك الطريق. كان قد أصبح عصبيا نزقا. وفهمت فيما بعد انه قد وجد العودة بها إلى مثل كوخه الحقير، أمرا شاقا. ولم يعد يرى في الزواج من فتاة تعلوه مقاما، أمرا مستحبا، وانه كان يخشى ما تفعله عندما تعرف الحقيقة.

وسألته بعد أن سارا زمنا بين القلاع: نيلسون. إلى أين نحن ذاهبان؟ فرفع يده مشيرا إلى الكوخ في القرية الصغيرة. ولكنها مظنة يشير إلى إحدى المزارع الجميلة فعادت إليها ثقتها.

وانحدرا إلى مربعات الملح القاحلة فتملكتها المخاوف من جديد، وبد لها المكان مستنقعا بشعا. ولفحتها الرياح المالحة، وهتفت في إذنها نذر الكوارث والخيانة. وأسرع نيلسون في سيره. ووصلا حدود القرية. ولم تجرؤ استريد خلال المرحلة الأخيرة من الطريق، أن توجه إليه سؤالا واحدا. ولكن منظر صف جديد من البيوت أعاد إليها شجاعتها. من المحتمل أنه لم يكذب عليها. وطالعتها هذه البيوت بأصص الزهور وسجف بيضاء على النوافذ. ورأت أخيرا في طرف القرية كوخا صغيرا فأشفقت على نفسها لأنها اضطرت أن تجتاز ذلك الصف من البيوت الصغيرة النظيفة. وشعرت كأنها رأت هذا البيت منذ القديم في عيني نفسها قبل أن تراه في الحقيقة.

قالت له وهي تتوقف على سفح رابية الرمل: هنا؟ فأومأ برأسه، واستمر يتقدم نحو الكوخ. فصاحت به مهددة: لقد كذبت علي وخدعتني.. فعلت أسوأ ما يمكن أن يفعله ألد أعدائي.

فقال لها بصوت خافت مضطرب: أردت إن تكوني لي.

– ليتك خدعتني بشكل معقول! لماذا ملأت رأسي بأوهام هذا. الغني؟ كل هؤلاء الخدم؟ ولم أقواس النهر؟ هل كنت تعتقد إني متعلقة

بالمال إلى هذا الحد؟ ألم تشعر باني احبك بالقدر الكافي لاتبعك حيث شئت؟ و كيف استطعت أن تستمر في الكذب إلى اللحظة الأخيرة.

وتمتم حزينا يائسا: إلا تدخلي وتتحدثي إلى أمي.

– لن ادخل هذا البيت.

– إذن تعودين إلى بيت اهلك.

– بيرج. كيف استطيع ذلك ؟ كيف أسبب لهم مثل هذا الحزن العظيم، وهم يعتقدون إني سعيدة وغنية. ولكن إن أبقى هنا. استطيع إن اشتغل واكسب عيشي. وناشدها مستعطفا: ابقي يا استريد. ابقي فما فعلت هذا الا حرصا عليك.

– لو صارحتني بالحقيقة قبل هذا الوقت بقليل، لبقيت.

– اجل كنت تبقين لو قلت لك إني فقير، و كنت غنيا. وهزت كتفيها. وكانت تهم بالعودة عندما فتح باب الكوخ وظهرت أم بيرج على العتبأ كانت عجوزا ضئيلة تركت السنون أثارة وجهها أكثر مما تركته في عقلها. وكانت قد سمعت جزءا من الحديث وحزرت الباقي. كانت تعرف ابنها، وتعرف شيئا عن الزوجة التي أتي بها. قالت لابنها: هذه أذن ابنة العائلة الكريمة التي تزوجتها. يبدو لي انك خدعتها وبرات لها الأكاذيب.

وتقدمت بلطف من استريد وداعبت خدها.

– ادخلي معي يا ابنتي المسكينة، إني اعرف متاعبك. فأنت

منهكة. هذا كوخي أنا، فلن يدخله. تعالي فأنت الآن ابنتي الصغيرة ولن أدعك تذهبين إلى بيت غريب.

وبذلت لها الكثير من عطفها وحنانها، ثم دفعتها برفق نحو الباب. ودخلت استريو أخيرا وظل بيرج خارجا. وسألتها العجوز عن قصة تعرفها إلى ابنها وكيف تم زواجها. ثم بكت عليها حنانا و إشفاقا. وبكت استريد على نفسها.

وقست الأم في الحكم على ابنها: أن استريد محقة. إنها لا تستطيع أن تعيش مع زوج مثله. فهو كثير الكذب. ولكنه كان دائما وديعا طيبا، حباه الله وجها جميلا وجسمها رشيقا. وقد كانت أمه تعجب له، وهو طفل، كيف ولد لعائلة فقيرة. كان أشبه بأمير صغير تائه، ضل سبيله. انه لم يكن في موضعه اللائق قط. كان يرى كل شيء خلال نظارات مكبرة. وعندما تمس كبرياؤه كان يفقد.. الموازين. وقد كانت أمه تبكي له وترني لحاله. ولكن أكاذيبه لم تكن قد أساءت إلى احد من قبل. كانوا يعرفونه في القرية ويكتفون بالضحك. والحق كان أمامه ما يغري هذه المرة.. أليس غريبا من در هذا الفتى، ابن الصياد، إن يستطيع خداع الناس؟ وكيف لم تثر أحاديثه الشكوك في قلب استريد.

كان يجيد تقليد الأغنياء في حركاتهم ودقائق حياتهم حتى ليبدو غنيا منذ الولادة. لقد ضل سبيله في الحياة على التأكيد. والدليل انه لم يفكر قط بانتخاب زوجة له من مستوى طبقته.

كانت الأم تتكلم وتتكلم، فتصغي إليها استريد وتتشرب في حالة حزنها، كل كلمة تقولها.

وأضافت: أترين يا استريد، إني لم استطع إن اقتلع منه هذا الكبرياء وهذه الحاجة الداخلية التي تدفع به إلى ادعاء ما ليس له من غنى وجاه. ولعل امرأة أخرى محبوبة تفوقني ذكاء، توفق حيث فشلت. انه لفتي وديع، طيب القلب. وفي ذلك ما يغري. يمكنك الذهاب غدا إن شئت.

وسألت استريد فجأة: وأين يقضي بيرج ليلته؟

– يمكنه أن ينام على الرمل خارجا. فليس لديه الشجاعة الكافية ليبتعد عن البيت.

– يحسن به أن يدخل.

– لا يا ابنتي العزيزة.. انك لا تريدين رؤيته. ولا يضيره أن ينام في الخارج. سأعطيه غطاء.

وقضى بيرج ليله على الرمل. وأرسلته أمه في صبيحة الغد إلى المدينة. كانت تفضل أن لا تراه استريد.

واستمرت تتحدث إلى الصبية. واستطاعت إن تبقيها بسحر حديثها، وما غمرتها به من حنان وعطف.

وعندما وفقت في إقناع استريد بالبقاء إلى قرب ابنها، عندما حل الوئام بين الزوجين. واستطاعت أن توحي إلى استريد بأن قدرها هو أن تكون زوجة ببرج نيلسون، وأن تصنع معه كل ما تستطيعه من خير، عندما أتمت الأم هذه المهمة، التي لم تكن عمل أيام أو أسابيع ودعت دنياها وذهبت إلى ربها.

ورزقت استريد طفلا. بدأت تعيش له وتحيى من اجله. وهبته كل ذاتها، ووجدت فيه، معنى جديدا لحياتها.

لم تستطع أن تغير شيئا من طباع زوجها. لم تستطع إن تعلمه كيف يكون صريحا صادقا و كيف يجد في واقعه قدرا كافيا من السعادة يصرفه عن سعادة الوهم والأكاذيب.

و غرق بيرج في إحدى رحلاته. غيبه الخضم العظيم في أحشائه الهائلة. وتبعه بعد مدة قصيرة ابنها الوحيد.

وظلت استريد وحدها في هذا القفر النائي. إلا أنها تعلمت كيف تستسلم لمشيئة القدر.

ولم ترد قط أن تواجه أحدا من أهلها. كان يخجلها أنها أصبحت شبيهة بنساء الصيادين..

وكانت تكسب عيشها من صنع شباك الصيد، ولكنها لم تكن تدري، على التحقيق، لماذا تعيش.

لو استطاعت، على الأقل، أن تسعد شخصا واحدا في الوجود أو تجعله أفضل مما هو!...

ولم تقل لنفسها مرة، أن المرأة التي ترى أن حياتها قد ضاعت هباء وذهبت صدى. لأنها لم تستطع أن تصنع خيرا مع أي كائن بشري، إنها قد تكون بذلك وحده، قد أنقذت روحها.

فهرس